الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة
Emir Abdelkader University of Islamic sciences
Constantine

كلية:	كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية	Faculty:	
قسم:	الدعوة والإعلام والاتصال	Departement:	

عنوان المطبوعة

Title of the Dissertation

✓ مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة:	✓ السداسي:
الثانية ل م د — Academic Pedagogical Publication Addressed to:	Semester:

✓ الميدان:	أعلام الدعوة الإسلامية في الجزائر ومؤسساتها	Domain:	
✓ الشعبة:	الدعوة والثقافة الإسلامية	Field or subfield:	
✓ التخصص:	الدعوة	Specialization:	
إعداد الأستاذ(ة):	البشير قلاتي	Submitted by:	

اعداد الأستاذ(ة): البشير قلاتي Submitted by: ----------

السنة الجامعية (Current Academic Year):

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية أصول الدين ، الشريعة والحضارة الإسلامية
قسم الدعوة،الأعلام والاتصال

أعلام الدعوة الإسلامية في الجزائر ومؤسساتها

محاضرات المادة لطلبة السنة الثانية
شعبة الدعوة والثقافة الإسلامية
نظام:L.M.D

إعداد: د/ البشير قلاتي

عبد القادر بن محي الدين
مراد ديدوش، عميروش
محمد لـــمين دباغ
تحيا الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

محاور مادة أعلام الدعوة الإسلامية في الجزائر ، ومؤسساتها.

- المحور الأول: مدخل الدراسة.
- المحور الثاني : أعلام الدعوة الاسلامية في الجزائر
- المحور الثالث: مؤسسات الدعوة الاسلامية في الجزائر

المحور الأول: مدخل الدراسة.

المحاضرة (1)

مدخل لدراسة :أعلام الدعوة في الجزائر ومؤسساتها:

– مقدمة: مفهوم الدعوة:

اختلف الباحثون في تعريف الدعوة الاسلامية ، فلا نجد لها تعريفا واحدا متفقا عليه،وكثير من تعريفاتها عام عائم، غير محدد، ، ولعلنا نقرأ في بعض الدراسات الأكاديمية من يحاول تحديدها بأنها : "ذلك الجهد المنهجي المنظّم الهادف إلى تعريف الناس بحقيقة الاسلام ، وإحداث تغيير جذري متوازن في حياتهم على طريق الوفاء بواجبات الاستخلاف ابتغاء وجه الله والفوز بما ادخره لعباده الصالحين في عالم الآخرة".(1)

وسنتناول في دراساتنا هذه الدعوة على أنها: "حركة إصلاح وتغيير شامل ، تهدف إلى بناء مجتمع اسلامى ملتزم بالاسلام ،عقيدة وشريعة وأخلاقا،من خلال تخليص المجتمع من سلبياته الذاتية والموضوعية والتحرك به على طريق النهضة والتقدم الإجتماعي الشامل وتبليغ رسالة الاسلام الى الناس كافة باستخدام كافة الوسائل المشروعة "...

ومن هنا تظهر الدعوة الاسلامية جهد حضاري شامل ،يهدف أساسا الى توعية الناس بقيم الاسلام السمحة ومن ثمة إحداث التغيير النفسي والاجتماعي ،بتربية أفراد المجتمع للالتزام برسالة الاسلام كاملة ،عقيدة وشريعة وسلوكا، باتباع منهج الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، باستخدام كافة الوسائل المشروعة لتحقيق الشهادة على الناس وفعالية المسلم في تعمير الارض.

ويقوم هذا المنهج على ثنائية التخلية والتحلية (بتعبير الصوفية)أو التغيير السلبي والايجابي (بتعبير غيرهم) ؛أي تنقية النفوس من مجموع الادران والقيم السلبية المتراكمة عقديا ،فكريا وسلوكيا ثم محاولة غرس القيم الايجابية بما فيها من شرائط الاعتقاد الصحيح ،الفكر المتنوّر والخلق الرفيع،...وتفعيل ذلك واقعيا ليتجسّد سلوكا وتعاملات ؛وهو الهدف الحقيقي لعمل الحركات الاسلامية ،التي يتجمّع أفرادها لتنسيق جهودهم لتحقيق هذا الهدف.

– أعلام الدعوة في الجزائر: هم العلماء من رجال الحركات الإصلاحية ،التغييرية في الجزائر،ممن رسموا منهجا لتغيير أوضاع المجتمع الجزائري التي طالها الفساد في نواحيها المختلفة لأسباب كثيرة ،منها الذاتي(قيم نفسية سلبية،أفكار ميتة موروثة..) ومنها الموضوعي(مؤامرات خارجية ومكائد الاستدمار الفرنسي)،، ومحاولة الانتقال بالمجتمع إلى وضع جديد من الانعتاق والتخلص من السلبيات :فكرا وسلوكا وتحقيق الإصلاح والتحرك الإيجابي على طريق النهضة والتقدم الحضاري....

---

1) أنظر الطيب برغوث،((منهج النبي (ص) في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية)) ،((رسالة ماجستير)) كلية أصول الدين،قسم الدعوة والاعلام،جامعة الأمير عبد القادر،قسنطينة، الجزائر،1992م،ص12

ويشمل ذلك حركات الإصلاح التي قام بها قادة الجهاد الإسلامي ممن قاموا بدور حاسم في تاريخ المقاومة الفاعلة للاستدمار الفرنسي وفي مقدمتهم الامير عبد القادر الجزائري،وعلماء حركة النهضة والإصلاح ممن زخر بهم تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر،من أمثال: الشيخ العلامة المصلح:عبد القادر المجاوي،والشيخ الصالح بن مهنا والأستاذ المولود بن الموهوب ،ورائد النهضة الجزائرية الحديثة الشيخ عبد الحميد بن باديس ،والشيخ البشير الابراهيمي،والطيب العقبي، العربي التبسي....الفضيل الورتلاني،ومن أعلام ميزاب الشيخ بيوض والشيخ أطفيش....

ولا تعني هذه الدراسات قطع الصلة بين الإصلاحية الإسلامية في الجزائر وبين قرينتها في المشرق الإسلامي ،لأن الصلة بينهما لا يمكن إنكارها ؛باعتبار أن اللحمة الدينية التي صنعتها ونمتها روح الوحدة الإسلامية(العروة الوثقى) في ذلك الوقت لم تكن لتدع مجالا للقطيعة المتوهمة التي قد تغذيها العصبية المنتنة التي يسر لها العدو المتربص،،،،وهنا نكتشف سر زيارة الإمام الإصلاحي الكبير محمد عبده لتونس والجزائر في الخمسينيات من القرن العشرين،،،ولا أحد منا ينكر دور مجلة(العروة الوثقى) في إيقاظ الوعي الديني والجهادي بين الطلبة في الجزائر ،كما سيأتي،،

– **أهمية دراسة أعلام الدعوة في الجزائر ومؤسساتها**: لا عجب أن كانت الدعوة مهمّة الانبياء والرسل ،وهم أشرف الخلق،واعتبرها القرآن أحسن ما يفعله المسلم :"ومن أحسن قولا ممّن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين "(فصلت /33)،،، وهي دعوة للخير قولا وعملا ؛ لأن الدعوة لا تعرف فصلا للقول عن العمل،:"يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون"..(الصف/2 ،3)

تُعتبر قضايا الدعوة من أكثر القضايا التي يثيرها الكتّاب والمفكرون في عصرنا نظرا للأصل الشّرعي الذي اعتبرها أحسن القول ، الآية السابقة (فصلت/33)، من جهة، ولارتباطها- من جهة أخرى- بجملة التّغيرات الاجتماعية محليا وعالميا؛ باعتبار أهدافها التّغييرية ،وما يثيره ذلك من حساسيات ومطارحات ،خاصة في هذه الظروف التي تعيشها أمتنا : ضعف في الداخل وقهر من الخارج،،،

وقد يؤدي سوء فهم الدعوة ومهمات الداعية الى نتائج عكسية(إحداث الفساد)كما هو ملاحظ عند كثير من حركات التغيير العنيف قال تعالى:"وإذا قيل لهم لا تُفسدوا في الأرض قالوا إنّما نحن مُصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ،ولكن لا يشعرون "(البقرة12/11).

أعتبر هذه الدراسات، ، محاولات جادّة تساهم في توجيه الوعي لمنهج تغيير راشد يروم خدمة الدعوة الاسلامية وترشيد حركتها التي لا يمكن ،بأي حال من الاحوال، إيقافها، من خلال دراسة نماذج للدعوة الفاعلة للإحياء الاسلامي عبر مراحل سيرورة المجتمع الجزائري المسلم ،من أجل نهضة حضارية في زمن التحديات الكبرى التي تهدّد مجتمعنا- اليوم – في جذوره وأسس بقائه.....

ولاعتقادي بأهمية دراسة هذه التجارب التي ربما أوحت أمثالُها لمثل عبقرية (ابن خلدون) أن تُطلق على سِفرها التاريخي الكبير اسم (العِبر....)،فإني أقرر أن المراد من هذه الدراسات ليس مجرد السرد التاريخي وتتبع الوقائع فقط، بل محاولة تحقيق الفهم والاستفادة من تجارب الدعوة والإصلاح بهدف رسم منهج للتغيير الإيجابي على طريق نهضتنا ؛لاعتقادي أن الدراسة الواعية لهذه التجارب كفيل بإنارة طريقنا للنهضة،وهو منهج قرآني أصيل في محتوى آيات القصص القرآن:" "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب..."(يوسف/ 111)،،،

كما أن الملاحظ في أوساطنا المتعلمة الجهل الذي يكاد يكون مطبقا بجهود الكثير من علماء الجزائر ورجال الدعوة والإصلاح فيها ،،،مما جعل بعضهم ينكرون ومن ثمّ يتنكرون للدور البارز الذي قام به هؤلاء في سبيل نهضة الجزائر و إعلان ثورتها الجهادية ضد المستدمر الفرنسي الغاصب؛ إذ لا ينبغي إغفال الدور التربوي الفعال الذي قام به ثلة من العلماء والدعاة وما قامت به جمعية العلماء المسلمين في بث الفكر

التحرري والوعي بواجب حماية الوطن والدفاع عن كرامة الشعب ضد الإستدمار الفرنسي ،وربما يكون السبب راجع من جهة إلى تقصير الإعلام عندنا في التنويه الكافي بهؤلاء العلماء الدعاة ، والتقصير الملاحظ في المغرب الاسلامي عموما في حركة التدوين وتسجيل والوقائع خلافا لما عليه عند إخواننا المشارقة ،وهو ما يفسّر قلة المراجع وشحّها الشديد في دراسة سير وجهود أعلام الدعوة والإصلاح في الجزائر ،،،؛ ما جعل كثير من علماء الجزائر غرباء في وطنهم،،،

وقد اقتصرت على ذكر بعض هؤلاء العلماء الدعاة ممن كان لهم تأثير كبير في الساحة الدعوية والثقافية،دون أن يعني ذلك غمط غيرهم حقهم الذي لا ينكر :" ولا تبخسوا الناس أشياءهم"،،لكن المقام لا يسعنا لذكر الجميع،فاقتصرنا على من ذكرنا،،،وكما أن لكل بنيان وإن تم نقصان فإني لا أدّعي استيفاء الكمال في إنجاز هذه الدراسات، ويمكن تدارك ما يلاحظ من نقص في حينه –إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه–.

– خصوصيات الوضع في الجزائر:

_ أهم التحديات الداخلية والخارجية التي واجهت حركة الدعوة في الجزائر:

في إطار دراسة أعلام الدعوة في الجزائر لا يمكننا إغفال خصوصيات وواقع التحديات التي واجهت حركة الدعوة،والتي أرى ضرورة التعريج على ذكر أهم هذه التحديات التي تعرض لها الشعب الجزائري وهو يعاني مرارة أبشع أنواع الاستدمار في التاريخ....

– مظاهر مسخ الشخصية الجزائرية:

***المسخ الاقتصادي والاجتماعي:**

لقد كانت الجزائر بلدا زراعيا كبيرا بدليل الهبات والديون التي كانت لها على فرنسا من صفقات القمح الجزائري،ويذكر أن 70% من السكان كانوا يعيشون من الزراعة،لكن الفرنسيون استولوا على أخصب الاراضي وقاموا بتوزيعها على شذاذ الآفاق من الاوروبيين ،وخصصوا اعلى نسبة منها لزراعة الكروم لتمويل صناعة الخمور عندهم ،أما الصناعة فكانت مقتصرة على بعض الصناعات التعدينية بما يخدم كليا الصناعة الفرنسية ،وعموما فإن الاقتصاد الجزائري كان تابعا للاقتصاد الفرنسي ،،،،وهو ما أسفر عن وضع مأساوي قل نظيره حتى تحولت الجزائر كما يقول (جاك مادول jacque madoul) الى مملكة للبؤس!!!حيث تنتشر فيها الامراض بسبب المجاعات ،وقد اصبح مستوى المعيشة فيها أحط مستوى في العالم (2).

***المسخ الثقافي:** بما أن من أهم قواعد الاستعمار :أنك اذا أردت أن تصنع من شعب خادما مطيعا فاسلب منه شخصيته أو امسخها 3 ....ولهذا حرص الاستدمار الفرنسي إلى القضاء التام على مقومات الشخصية الجزائرية: الاسلام واللغة العربية ،فرسم لذلك خطة دقيقة لتحقيق هدفه الاستراتيجي (الاستيطان الدائم في ارض الجزائر) فأقام سياسته على أربع قواعد:

---

2 –تركي رابح،التعليم القومي والشخصية الجزائرية،الجزائر :ش،و،ن،ت،ص ص84...87،91

3 –ينقل الدكتور علي شريعتي عن أحد المفكرين قوله :"اذا أردت أن تستخدم شخصا وتجعله خادما مطيعا وتطمئن الى وفائه لك، عليك أن تسلب منه شخصيته ؛لأنه إذا كانت له شخصية لا يمكن أن يكون خادما جيدا".....!! ،،،=

1-التنصير 2-نشر الخرافية 3-التجهيل 4-الفرنسة

1- **التنصير** :اصطحب الجيش العسكري الغازي معه جيشا من المنصّرين ...الذين لم يكن هدفهم، بالضرورة، إدخال المسلمين في المسيحية بل كان هدفهم الاساس اخراجهم من الاسلام ولو بقوا دون دين ،،،وقد انتشر هؤلاء مستغلين ظروف البؤس والفاقة التي يعاني منها الجزائريون لتنصيرالاطفال ،وقد كان الجنرال (بيجو Bugeau)مبدع سياسة الارض المحروقة في الجزائر يأتي باليتامى الى القسيس ويقول له:"حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين ،واذا فعلت ذلك فلن يعودوا ليطلقوا النار علينا"!! ...وقد كانت مجاعات عام 1868/1867م والتي راح ضحيتها مئات الآلاف وما أعقبها من أمراض الكوليرا والتيفوس فرصة لهؤلاء لتنصير المسلمين بقيادة الكاردينال (لافجري) 4...ولم يكتف هؤلاء بذلك بل حاولوا جاهدين فرض التفرقة العنصرية بين أفراد الشعب الجزائري المسلم وذلك باسقطاب سكان بلاد القبائل باقناعهم أن أصولهم غالية،وحاولوا استبدال القوانين الاسلامية بأخرى مما جعل السكان يثورون بقياداتهم الدينية ،،،،فكانت خيبة الاستدمار الفرنسي بذلك كبيرة، حيث عرف أن الاسلام أكثر تجذرا في النفوس مما كانوا يظن.

2-تشجيع الخرافية:

وهي غير الخرافات كموضوع بل الخرافية كمنهج تفكير ينتج الخرافات ويقوم على اللاسببية والتفسير الماورائي للظواهر، وهذا المنهج حرصت دوائر الاستعمار على نشره بين الشعب ضمن رسالتها الحضارية المزعومة ،ولذلك عمدت على تشجيع الطرقية ماديا وأدبيا ،بما تحمل من قدرية عمياء وتقوقع ذاتي ودعوة للخلاص الفردي وهو ما يبرر للإستعمار وجوده.

ويمكن اعتبار الطرقية – على هذا النحو- ممثلا صادقا للاستعمار الداخلي الذي يهيّء الأرضية للاستعمار الخارجي .

وقد عمد الاستعمار على صنع من هؤلاء آلات بشرية لتقوم بدورين:

-كمحلول تخديري ،يخدر العقول ويشل الارادات .

-كأبواق للدعاية له في المحافل وفوق المنابر.

ومن جهة أخرى حرص على تكوين نخبة من المنتسبين للجزائر اسما المنسلخين عنها روحا وثقافة ،وكان يسميهم (جماعة النخبة)،،،بما يوحيه هذا اللقب من تمييز وفوقية ..

3-التجهيل والفَرنسة:

يؤكد الكثير من الباحثين ،-حتى من الفرنسيين أنفسهم- أن التعليم بين الجزائريين كان مزدهرا قبل دخول الفرنسيين (الذين جاؤا لنشر الحضارة حسب زعمهم!!)، ومن ذلك ما ذكره النائب الفرنسي (طوكفيل Tangvill) عام 1847م وما كتبه الجنرال (ولسن استرهازي

= انظر، علي شريعتي ،الإنسان والإسلام ،ط1 بيروت:دار النهضة،1412هـ/1992م،ص71

4 -تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس ،د ط ،الجزائر ،ش و ن ت ،ص 44 ،45

welsson Esterhazy) واسماعيل اربان حيث أكد الاخير أن نسبة المتعلمين من الجزائريين كانت أكثر من الفرنسيين ،حيث أن45% من الفرنسيين كانوا أميين 5،ولا عجب في ذلك إذ أن الشعب الجزائري المسلم يدرك أن من مقتضيات دينه ، طلب العلم . ويصرح أحد جنرالاتهم أمام مجلس النواب في جلسة 20 يناير 1834 :" أن جميع العرب تقريبا يعرفون القراءة والكتابة ، ويوجد في كل بلدة مدرستان ". أما الأستاذ(إيميري) فقد أشار إلى أنه كان في قسنطينة وحدها قبل الاحتلال خمسة وثلاثون مسجدا تستعمل كمراكز تعليم ،كما كان هناك سبع مدارس ثانوية يحضرها بين ستمائة وتسعمائة طالب ،يدرسّ فيها أساتذة محترمون لهم أجور عالية ،أما المدارس الابتدائية فقد كان هناك تسعون منها يحضرها ألف وثلاثمائة وخمسون تلميذا..(6) .

وادراكا منها لخطورة التعليم على مصالحها في الجزائر وتهديده لبقائها ،فقد وضعت إدارة الاستدمار الفرنسي استراتيجية خبيثة للقضاء على التعليم،فقد كتب الجنرال (دوكرو) عام 1864م تقريرا الى (نابليون الثالث) اسماه"تقرير حول الوسائل التي يجب استعمالها من أجل فرض السلام في الجزائر "،يقول في تقريره هذا :"يجب علينا أن نضع العراقيل أمام المدارس الاسلامية والزوايا [**التي لا تخدم مصالحه**] كلما استطعنا الى ذلك سبيلا..وبعبارة أخرى يجب أن يكون هدفنا هو تحطيم الشعب الجزائري ماديا ومعنويا!!."7....

عمد الفرنسيون على القضاء على المقوّم الثاني للشخصية الجزائرية وهو اللغة العربية في الادارة والتعليم ،واستبدالها بالفرنسية،حى خشي بعض الغيورين من ضياع اللهجة العامية ذاتها ،فما بالك بالفصحى!!...وفي الوقت الذي حرص فيه الاستدمار على غلق المدارس حرص على فتح بعض الزوايا، **التي تخدم أهدافه**، حتى بلغت خلال القرن التاسع عشر 349زاوية،بعدد مريدين قدر بحوالي 295000مريد98. فماذا فعلت فرنسا بعد الاحتلال للجزائر إزاء ذلك ؟.يجيب أحد مؤرخيهم وهو السيد (موريس وول) قائلا: "أول ما بدأنا به هو القضاء على المسيدات (أي المدارس) والزوايا الريفية والمدارس العليا وغير ذلك من المعاهد الإسلامية المتواجدة قبل عام 1830.." (1).كما عمدوا إلى الأوقاف وكان هو المصدر الأول للتعليم، وقد كتب الجنرال (دوكرو) عام 1864 تقريرا إلى نابليون الثالث سماه تقرير حول

---

5 -تركي رابح،م،س،ص 45، 94

أنظر أيضا: أبو القاسم سعد الله ، ، الحركة الوطنية الحركة الوطنية الجزائرية ، ط3 ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983م ، ج 2 . ،ص61

(6)2 - أبو القاسم سعد الله ،م،س،ص 62 .

7 -مصطفى الاشرف،الجزائر ، الامة والمجتمع،الجزائر:م،و،ن،ت،ص 128، 129

1 -عمار الطالبي ، بن باديس حياته وآثاره،ط2 بيروت:دار الغرب الاسلامي ،ج1، ،ص18

الوسائل التي يجب استعمالها من أجل فرض السلام في الجزائر بقول فيه :"يجب علينا أن نضع العراقيل أمام **المدارس الإسلامية والزوايا** كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا.. وبعبارة أخرى يجب أن يكون هدفنا هو تحطيم الشعب الجزائري ماديا ومعنويا"!! (10)

وبذلك يشرح لنا هذا الجنرال معنى السلام الذي يقصد فرضه في الجزائر. ولم يقف الأمر عند حدود عرقلة التعليم ، بل وصل إلى حد وقفه ؛للخطورة التي يشكلها تعليم الجزائريين على مصالح فرنسا ووجودها ، فقد جاء في لائحة مؤتمر (الكولون)-المعمّرون- في عاصمة الجزائر عام 1908 : "إن المؤتمر، نظراً إلى أن تعليم الأهالي سيعرض الجزائر إلى خطر حقيقي، يعبر عن رغبته وهي : أولاً أن التعليم الابتدائي يجب وقفه"؛ لأن تعليم الجزائريين سيجعل منهم خصوماً لفرنسا كما قال(فلويس تيرمان) حاكم الجزائر من 1881 إلى 1891.(11)

تظافرت جهود السلطة الفرنسية في محاولة القضاء على أحد أهم مقومات الشخصية الجزائرية وهي اللغة العربية واستبدلها بالفرنسية ، فأبعدتها عن الإدارة ومعاهد التعليم حتى خشي بعض المخصلين من ذهاب الحديث بالعامية.!!.وبعد قرن وثلث من الاحتلال طالت الأمية 94,9 % من الرجال و 98,4 % من النساء.(12) وفي المقابل شجّعت الإدارة جماعة المتشبعين بالثقافة الفرنسية والتي تسميهم جماعة النخبة وشكّلت بهم تياراً قويا كانت له جرائده ودعاته " داخل الجزائر وخارجها وأنصار هذا التيار هم الذين نجح المحتل عن طريق الثقافة الفرنسية ووسائلها أو عن طريق العمل في الإدارة أو التجنيد في الجيش الفرنسي في صبغهم بالصبغة الفرنسية بحيث أصبحوا أداة في يده لمحاربة مقومات الشخصية الجزائرية وأهمها اللغة والثقافة.. ".(13) .

- دور العلماء المسلمين في بعث الوعي بالتحرر والاستقلال:

منذ وطئت أقدام الاحتلال الصليبي الفرنسي أرض الجزائر كانت المساجد والزوايا منطلقا في التعبئة الجهادية والحركات الثورية وهو أمر طبيعي يرجع أساسا على عقيدة هذا الشعب وتمسكه بدينه وقيمه التي تأبى عليه قبول الغزو الكافر ،... وهذا ما كان أدركه الفرنسيون

---

(10) 2- نفسه ، ص 128 ، 129 .

(11) 3- أبو القاسم سعد الله ، م.س ، ص 148 .

(12)4 - تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ، ط 2 ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981م،ص 94 ، 95

5- نفسه، ص 99.

-أقول: رغم بشاعة جرائم فرنسا في الجزائر والتي قل مثيلها في التاريخ الانساني ، إلا أنها ما زالت ترفض، لحد كتابة هذه السطور، الاعتراف بها،،،رغم أن إيطاليا اعترفت خلال هذا الشهر(أوت 2008م) بجرائمها في ليبيا الشقيقة،مع دفع تعويضات مالية هامة للشعب الليبي الشقيق، رغم أن ما اقترفه الاستعمار الإيطالي لا يعد شيئا مقارنة بالاستعمار الفرنسي!!!!

جيدا، فعمدوا إلى محاولة القضاء على الإسلام بشتى الطرق والوسائل، وذلك بتشويهه وتحريفه ووجدوا في الكثير من رجال الطرقية (**التي تنسب نفسها إلى التصوّف الديني زورا**) خير من يقوم بهذا الدور الخطير....

وقد ظهر من رجال الجزائر جماعة من العلماء أدركوا حقيقة هذا الأمر وخطورة ما يتعرض له شعبهم من مسخ وتشويه من طرف الاحتلال من جهة وسيروا غور أمراضه وعلله المتراكمة عليه مع حركة التاريخ من جهة أخرى، إضافة إلى ما لاحظوه من ابتعاد من تبني النظال الوطني عن حقيقة هذا الشعب وثقافته العربية الإسلامية، سواء من الاستقلاليين ذوي التوجه اليساري أو من الاندماجيين ذوي التوجه اللبرالي اليميني، فاختاروا طريقا ثالثا في محاولة إصلاح أوضاع الشعب الجزائري بالتربية والتعليم على أصول الإسلام الحنيف بإحياء لغته وبعث دينه، وقد كانت ثلة العلماء الحاملين لراية الإصلاح في هذا التيار ذات ثقافة إسلامية وطنية تأثروا بحركة الإصلاح وتيار الجامعة الإسلامية بالمشرق، وكانوا قد تنقلوا إلى خارج الجزائر لتلقي العلم خاصة إلى بلاد الحجاز ومصر والشام ...أشهرهم، الشيخ صالح بن مهنا، عبد القادر البجاوي، الشيخ بن سماية، الشيخ المولود بن الموهوب- رحمهم الله جميعا-، الشيخ حمدان لونيسي، الشيخ عبد الحميد بن باديس..... أدرك العلماء من خلال الوعي بسنن التاريخ في التغيير حقيقة أمراض المجتمع الجزائري التي مكنت للاستدمار الكافر من قهر هذا الشعب والاستبداد بامره ،وأيقنوا أن تغيير أوضاعه لا يتم الا بتغيير في ذاته،أي بالتخلص من رواسبه ورممه و أمراضه الداخلية ،تبعا لسنة التغيير القرآنية الفاصلة:" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الرعد/11).

بدأ الاصلاح الاسلامي بثلّة من العلماء نشأوا من عمق الشعب الجزائري ،مدركين حقيقته وخصائصه الثقافية **فعكفوا على اصلاح المجتمع من الداخل ،لتأهيله بذلك لتغيير الاوضاع الخارجية ؛لأن إرادة التغيير والتي تؤهل للحركة التغييرية عنفا أو سلما،لا تتم دون تهيئة نفسية وعقلية ملائمة،،،،فلا ثورة دون وعي ثوري.**؛ وتغيير الاوضاع الخارجية لا يتم دون تعبئة النفوس بالايمان الصادق الذي تتشبع به فتتحول طاقة جبارة من شأنها زعزعة الجبال ،لو أرادت،تلك سنة الله في خلقه:"فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا"، (فاطر/43).

وقد ادرك العلماء أن أهم وسيلة لتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي الضخم هو التربية والتعليم ،ونكتفي بذكر بعض هؤلاء الافذاذ الذين صابروا ورابطوا في جبهة الجهاد التعليمي في ظروف كالحة،وجد صعبة،من هؤلاء الشيخ العلامة ((الصالح بن مهنا))،العالم الازهري، وما قام به من دور خطير في محاربة الخرافية والجهل طيلة ثلاثين سنة،الى أن توفي عام 1907،.(14)،ومنهم الشيخ ((عبد القادر المجاوي)) المولود عام 1848م،خريج جامع القرويين بالمغرب وغيرهم....

14) – مالك بن نبي ،شروط النهضة،دمشق: دار الفكر،ص23، ، أنظر أيضا: عبد الرشيد زروقة ،جهاد ابن باديس ،ط1،بيروت:دار الشهاب ،1999م،ص70 ،72

المحور الثاني: من أعلام الدعوة في الجزائر

المحاضرة (2) : الداعية المجاهد محمد بن عبد الكريم المغيلي

- مقدمة: يقترن تاريخ اليهود بالكثير من الخيانات ضد المسلمين ، فقد تعاونوا مع المنافقين ضد الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة الاحزاب ، في المدينة المنورة ، ومارسوا الخيانات في كل البلاد الإسلامية ، خاصة في بلاد المغرب والأندلس ، وأدرك العالم المجاهد محمد بن عبد الكريم المغيلي هذا في المغرب العربي وتوات(1) والسودان الغربي وسائر مدن الصحراء خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ، فنبه وحذر من ترك المجال لهم ، ولكن قليل من سمع وجهة نظر هذا العالم الذي صدقت مخاوفه وتحذيراته ، فعانت الجزائر وتونس والمغرب الأقصى من ويلات مشاكل اليهود وكانوا سبباً قوياً في تسهيل استعمارها من قبل فرنسا ، كما كانوا السبب في مشاكل كثيرة للعالم الإسلامي وما يرتكبه اليهود في الوقت الحاضر من مؤامرات دنيئة ، نبه إليها المغيلي قبل ستة قرون . العالم المجاهد ،والداعية الشجاع الذي حمل لواء رد كيد اليهود ودحض مؤامراتهم في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ومطلع السادس عشر . في مدينة توات وفي بعض مدن الشمال الأفريقي .

- المبحث الأول: التعريف بالمغيلي:

- **المطلب الأول : المولد و النشأة :**

الفرع الأول : مولده و طلبه العلم :

ولد محمد بن عبد الكريم المغيلي بمدينة مغيلة بمنطقة تلمسان في حدود سنة (823 هـ - 1417 م) و والده هو : محمد بن عمر بن مخلوف بن علي بن الحسن بن يحي بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد القوي بن عباس بن عطية بن قيس بن غالب بن أبي بكر بن عبد الله بن محمد بن ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه-. نشأ المغيلي في مسقط رأسه بمغيلة في بيت عرف بالتدين و الجاه و العراقة في الحسب و والإشتغال بالعلم،بدأت مسيرته العلمية منذ الصغر ،على حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي المشهور بالجلاب ،و تلقى منه مبادئ الفقه بقراءة رسالة إبن أبي زيد القيرواني و مختصر خليل و ابن الحاجب ، و أخذ علم الحديث على يد الإمام سعيد المقري (حيث قرأ الموطأ) ، و لما كان توّاقا بطبعه إلى الزيادة من العلم و المعرفة لم يكتف بما أخذه من تلمسان بل اشرأبت عنقه نحو باقي المناطق الثقافية ببلاد المغرب و المشهورة

---

(1)(1)- تقع بواحة توات ، وهي إحدى أهم الواحات بجنوب غرب الجزائر ، تبعد عن العاصمة الجزائر بحوالي 1500 كم ، وتحتل موقعاً استراتيجياً على أحد أهم الطرق التجارية الصحراوية ، كمفترق طرق استقطبت التجار والحرفيين وفي مقدمتهم اليهود، لمزيد من التفصيل أنظر: يحي بو عزيز ، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ، دار الغرب الإسلامي ، ج 2 بيروت ، 1995 ، ص ص 144 ، 146

بالعلم و ازدحام طلاب العلم فوقع اختياره على منطقة بجاية، و هي تعتبر آنذاك العاصمة الثقافية لبلاد المغرب الأوسط بلا منازع ،و وجد ببجاية مشايخ كثر مشهورين و معروفين بالعلم فأخذ منهم جملة وافرة من التفسير و الحديث و الفقه و الأصول ، و من أشهر العلماء الذين تتلمذ على أيديهم هناك الشيخ أبو العباس الوغليسي –رحمه الله–،

انتقل من بجاية إلى جزائر بني مزغنة قاصدا الشيخ(عبد الرحمان الثعالبي) أخذ على يديه التصوف حتى صار من أخص تلامذته مما أظهره من استعداد وصدق و علم و قدرة على الإلمام ، الأمر الذي جعله يحظى بمكانة عنده ، و لما طابت علاقته و صحبته به ، قام الثعالبي بتزويجه من ابنته زينب ، و لما عاد إلى تلمسان متابعا مشواره في طلب العلم و لكن هذه المرة بطريقة أخرى و هي مطالعته الكتب و دراستها على اختلاف أشكالها و تباين موضوعاتها حتى أجاد و تفوق فيها و لذا وصفه (الشيخ التنبكتي) بما يلي : " خاتمة المحققين العلامة و القدوة الفهامة العالم أحد الأذكياء ممن لهم بسطة في العلم و التقدم." (15)

الفرع الثاني: شخصيته و آثاره العلمية :

كان المغيلي ذو روح متصوفة ؛تأثر إلى أبعد الحدود بشخصية شيخه الثعالبي ، لذا كان حريصا على معرفة الكتاب و السنة معرفة دقيقة و العمل بهما و الجمع بين العلم و العمل و السعي إلى معرفة الله حق المعرفة عن طريق التأمل و النظر و التفكير في مخلوقاته ، و كان المغيلي تقيا ورعا متجردا عن هوى النفس و حب الدنيا ، و كان بعيدا عن مغريات السياسة و السلطة ، و من علامة زهده هي انقطاعه إلى القيام بفريضة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في عصر قل فيه ذاك، لا يخشى في الله لومة لائم، و لقد وجد في هذه النزعة الكثير من المتاعب و الآلام و عاش حياة صراع مستمر إلى أن وافته المنية ، و من آثاره العلمية تركه جملة معتبرة من المؤلفات تناولت موضوعات شتى و علوم مختلفة تناهز الثلاثين و رسائل بمختلف أنواعها و أحجامها و لا بأس أن نورد بعضها حسب موضوعاتها :

_ في الدعوة و التربية: كتب رسالته:"عمل اليوم والليلة"، في الواجبات اليومية للمسلم في العبادة والذكر"..(16).

– علم القرآن و التفسير : كتاب البدر المنير في علم التفسير .

– علم الحديث : مفتاح النظر في علم الحديث .

– الفقه : مغني النبيل في شرح مختصر خليل ، إكليل مغني النبيل و هو حاشية على هذا الشرح ، شرح و تعليق على بيوع الآجال ، المفروض في علم الفرائض .

– السياسة الشرعية : تأليف في المنهيات و (هي معروفة بالوصية) رسائل متعددة خاصة بحكام السودان ، رسالة سماها:" فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار و اليهود" و هي مخطوط .

– علم الكلام : مصباح الأرواح في أصول الفلاح .

– التصوف : كتاب تنبيه الغافلين .

– اللغة العربية : مختصر تلخيص مفتاح العلوم للسكاك و شرحه ، مقدمة في اللغة العربية .

15-يحيى بوعزيز، م،س، ص 146

16)- للاطلاع على محتوى الرسالة يمكنك الاتصال ب: **WWW.ALBACHIR65.MAKTOOBBLOG.COM**

- **المطلب الثاني : خصائص بيئته و أهم التحديات التي واجهها :**

الفرع الأول: في تلمسان مسقط رأسه :

لما عاد المغيلي إلى تلمسان و خلال اشتغاله بالتدريس لاحظ التعفّن السياسي الذي يسود عرش بني زيان و التفسخ و و الإنحلال الخلقي اللذان يعمان مجتمع المدينة الزيانية و تكالب القوى الأوروبية على البلاد ، و كذلك رأى خروج الأمراء على الجادة الإسلامية و انغماسهم في الملذات و استسلامهم لأهواء الأجانب من اليهود و الإسبان والبرتغاليين فأنف من العيش هناك و تاقت نفسه إلى الهجرة إلى حيث يكون في مقدوره أن يقوم بواجب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، فغادر تلمسان إلى السودان الغربي في أواخر السبعينيات خلا القرن 15 للميلاد و قصد واحة توات ، و و لهذه الهجرة أسباب أهمها :

- اكتشاف ملك تلمسان مؤامرة دبرها له خصومه لاغتياله و اتهم منهم العلماء و الشيوخ و من بينهم الإمام أحمد بن يحي الونشريسي فغادرها ، كما غادرها المغيلي أخيرا. .
- اشتهار منطقة توات بالأمان لكل المضطهدين.
- قضية اليهود و سكوت الحكام عليهم و على أعمالهم الخسيسة و تحريفهم للقواعد و الأحوال الدينية،ورغبة المغيلي في تغيير المنكر.
- الوضع الإجتماعي المتردي الذي تعيشه مدينة تلمسان بسبب ما أحدثه اليهود (17).

الفرع الثاني: في واحة توات:

و عندما دخل إلى توات وجد وضعا دينيا و اجتماعيا و اقتصاديا سيئا و غير متوازن لا يخدم مصالح السكان الأهالي ، و إنما يخدم فئة خاصة من اليهود و بعض التجار ، فشمر عن ساق الجد للإصلاح حتى و إن احتاج ذلك إلى استعمال القوة و هو ما حصل فعلا (18) ا .

و لقد استغل اليهود في توات أموالهم و ثرائهم الفاحش فتحكموا في القادة و السادة و تسلطوا عليهم و أخضعوهم لإرادتهم و لخدمة مصالحهم الخاصة ، و لا شك أن بعض الأمراء و زعماء الأسر الغنية في(تمنطيط) كان لهم دخل في نفوذ اليهود الديني و السياسي ، استغلوه ليمارسوا أعمالا أخرى خسيسة أبرزها محاولتهم النيل من عواطف المسلمين الدينية و كرامتهم ، و من أغرب الأمور التي كشف المغيلي الغطاء عنها في تمنطيط وجود يهودي متنكر في زي إمام مسلم أم المسلمين طيلة 40 عاما و عندما افتضح أمره بواسطة المغيلي جمع حوائجه و حاول أن يفر فلاحقه و تولى قتله بنفسه ، و زيادة على هذا قام اليهود ببناء و تشييد بيعة كبيرة لهم تجاوزت الحد في فخامتها كما بنوا بيعا أخرى في واحة توات التي يتواجدون بها و كأنها مملكة يهودية و ليست بلادا إسلامية مما جعل المغيلي يعتبرها مساسا بالشعور الإسلامي و كرامة المسلمين و تطاولا على شعب توات و اعتداء على سيادته الوطنية ، و آل على نفسه أن يقاوم هذا التطاول

1- مقدم مبروك مقدم ، الإمام محمد بن عد الكريم المغيلي من خلال المصادر و الوثائق التاريخية ، مؤسسة الجزائر كتاب، ص 57 ، 58 .

2_ يحي بوعزيز ، نفس المصدر ص 146 .

اليهودي و يعيدهم إلى مكانهم الطبيعي كجالية في بلاد مسلمة .فبعث المغيلي رسائلا إلى معظم علماء المسلمين يستشيرهم في قضية يهود توات ، فاختلفت الردود بين مؤيد و معارض ، فأخذ برأي المؤيدين له و جمع أصحابه و أنصاره فخربوا بيعة اليهود في (تمنطيط) وهدموها.

بمجرد أن أتم دراسته بالشمال إنتقل إلى الصحراء و استقر بمدينة توات ،بالقرب من تقرت و لم يعد الى تلمسان التي تركها ساخطا مغتاظا من سيطرة اليهود على مقاليد السلطة و اكتشف أيضا ان واحتي تقرت و تمنطيط كانتا تعيشان نفس الوضعية حيث كان اليهود يعيشون كأنهم الحكام الحقيقون لها، فنظم كل طاقاته في صيغة حملة عسكرية لطرد اليهود إبتداء من سنة 1488م ،أيده في مشروعه كل من الشيخ محمد بن عبد الجليل التنسي و الشيخ السنوسي فقصد كنائس اليهود و دمرها عن آخرها، ظهرت بعض جيوب المقاومة في أواسطهم طاردهم و لاحقهم حتى مالي و النيجر التي كانت تسمى ببلاد السودان كلفته هذه العملية حياة ابنه عبد الجبار المغيلي الذى قتله اليهود..

لم تكن حركة المغيلي نابعة من موقف ديني فقط بل ايضا من كراهية شخصية لليهود حيث يقول في كتابه:" مصباح الارواح في اصول الفلاح": " فمن لا يبعد نفسه و أهله و ماله و جميع اعماله عن الكفار فهو أجهل من الحمار؛لأنه لا عدو لنا مثل أعداء نبينا و سيدنا محمد"صلى الله عليه وسلم"."

و لتبرير موقفه يستعرض بعض الحوادث العامة كقوله أن قاض شغّل عنده يهوديا ففوجئ عند عودته الى البيت بان وجده يبول على ثيابه !!....و اليهودية التي رآها تعجن خبز مسلم و تضع له القمل من رأسها...الى آخر الحوادث التي أثرت على المغيلي وموقفه من اليهود.

المبحث الثاني : منهجه في الدعوة إلى الله :

– المطلب الأول : أهداف دعوته و أساليبها :

الفرع الأول : نشاطه داخل منطقة توات و أهدافه :

لقد تعددت نشاطات المغيلي في المناطق التواتية تماشيا و دوره الفعال و شخصيته الفذة و رسالته الإيمانية الروحية الصوفية المناهضة للكفار و خاصة يهود توات، و من **أهم نشاطاته ما تعلق بالجوانب التالية** :

- الجانب التعليمي لنشر أفكاره الروحية وقد كتب رسالته حول واجبات وأوراد المسلم اليومية.
- الجانب العلمي حيث ساهم من خلاله بالعديد من الكتابات في مجالات عديدة .
- ثورة على الأفكار البالية السائدة في المجتمع خاصة الفكر التواكلي و الجبري.
- ثورة على البدع و الخرافات التي تركها اليهود في مسارات الحياة الإجتماعية حيث أصبح المسلمون يتعاملون معها كأنها أمر طبيعي .
- ثورة على الجمود الفكري الذي سار عليه علماء عصره خاصة تحريمهم للمنطق الذي يعتبره ضرورة لقيام الحجة لدى المسلمين .
- ثورة على الإنسان و سلبيته اتجاه ما يحيكه اليهود ضده و ضد الإسلام و تقاعسه عن استعمال القوة التي منحها الله له لرد كيد الكائدين .

و كان الغرض و الهدف من ذلك عنده :

- إيقاظ الروح الدينية بين عامة المسلمين داخل و خارج توات.
- إنارة العقول بنشر أفكاره الروحية عن طريق التعليم و التدريس .
- نشر الفكر الإصلاحي بين الناس عامة و محيطه خاصة ، عن طريق مذهبه الروحي الإصلاحي .
- التفكير دائما في تهيئة الجيل الجديد لتقمص الروح الدينية و الفكر الجهادي الفذ للدفاع عن عرى الإسلام و المسلمين داخل المنطقة و خارجها .
- ترسيخ نمطية جديدة في المجتمع تعتمد على الحوار بين العلماء في مجمل القضايا المطروحة سواء كانت صغيرة أم كبيرة .
- القضاء على النفوذ اليهودي المتزايد.

الفرع الثاني: أسلوبه في الدعوة :

لقد انتهج المغيلي في دعوته أسلوبا خاصا و هذا مستنتج من خلال موقفه من واحة توات و بلاد السودان بين دخوله لهما و الأعمال التي قام بها فيتمثل أسلوبه فيما يلي :

- **المشاورة** : فقد أرسل المغيلي رسائل إلى بعض علماء الإسلام يستشيرهم في قضية يهود توات الذي تخالف فيه مع حكام توات و علمائها .
- **إعلان الحرب على اليهود بالسيف لتغيير المنكر باليد مع القدرة:** فحاربهم و هدم كنائسهم و صادر أموالهم.
- **النصيحة للحكام** : في السودان وغيره و دعوتهم إلى الإسلام و عبادة الله وحده و الحكم بالشريعة الإسلامية و هذا من خلال الرسائل التي كتبها للسلطان كانو أو التي تناول فيها أمور السلطة ، و رسالة تسمى تاج الدين فيما يجب على الملوك ، و كذلك إجابته لسلطان كاغو عن أسئلته الخاصة بإصلاح مملكته . النصيحة للحكام الذين وجدهم فيها و للشعب الذي يلتف حولهم و خاصة في قضية يهود توات حيث ألزمهم دفع الجزية وإلزامهم الأدب في تعاملهم مع المسلمين خاصة.

المطلب الثاني : تقييم نشاط دعوته :

الفرع الأول : نتائج دعوته في السودان الغربي :

يتبين لنا مما كتبه عثمان بن فوزي و عبد الله بن فوزي و محمد بن بلو عن جهوده الدعوية أن روح الأفكار التي حملها محمد بن عبد الكريم المغيلي في حركته الإصلاحية، تتمثل في :

- العمل على تصحيح العقيدة في عقول ونفوس الناس،وتحويلها انعكاسا على سلوكهم،من خلال رسالته في "أعمال ا ليوم والليلة"؛ أي ربط العقيدة بالسلوك العملي، حتى لا تبقى مجرد تنظير كلامي..
- محاربة البدع و الأوهام و تدريس القرآن الكريم و تبسيط و شرحه و فهمه للعامة .
- تلقين الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة و تيسير تفهيمها للعامة.
- إثارة المسلمين ضد النفوذ اليهودي ، الذي قد يتطور إلى الاستحواذ على بلاد المسلمين.

الفرع الثاني : عودة المغيلي إلى توات ووفاته :

لقد أثرت حادثة مقتل إبنه عبد الجبار ابن المغيلي عليه و أعطته حافزا للرجوع إلى توات حيث كان بحضرة ملك كانو حين سمع الخبر و طلب منه أن يجمع أهالي توات الساكنين عنده فيدخلهم السجن ، فعارضه أحد العلماء فتنازل عن قراره و حزم أمره و جمع أمتعته وغادرها إلى توات حيث تفرغ للدعوة: تدريسا وتعليما وتأليفا إلى أن وافته المنية في غرة رمضان لسنة 909 هـ الموافق لـ 1505م أو 1504م ، و لقد

قسمت فترة حياته إلى :

- فترة الصبا : و قضاها في تلمسان مع الأهل .
- فترة طلب العلم : و كانت بتلمسان و بجاية و الجزائر العاصمة .
- فترة العلم و التفوق و الزواج : و كانت بمدينة الجزائر (العاصمة) مع عبد الرحمان الثعالبي .
- فترة بناء الأسرة و تربية الأولاد و بناية المنهج الدعوي : و قضاها بتوات .
- فترة الرحلات و تجسيد الأفكار : و قضاها بين توات و فاس و السودان الغربي .
- فترة المعارك و الثورة على اليهود و من ناصرهم : و قضاها بتوات و بالذات بتمنطيط .

. مدى الاستفادة من حركة المغيلي في الدعوة:

من خلال هذا المنهج الدعوي للإمام المغيلي التلمساني ،يمكن للداعية المعاصر أن يستفيدها ، و من جملتها : – أهمية طلب العلم الشرعي للداعية والجد في الطلب و إن اقتضت الضرورة أن يرتحل إليه .

- الإرتحال في سبيل طلب العلم الشرعي .وبذل الجهد في سبيله.
- الصبر على الحق مهما كثرت الخطوب والمحن.
- نصرة الحق ، بالحوار العلمي ،والمحاججة الموضوعية ، و نجد هذا من خلال حواراته التي قام بها مع العلماء الذين خالفوه و عارضوه في قضية يهود توات .
- الاحتكام أولا وأخيرا إلى كتاب الله وسنة رسوله، يتضح ذلك من حكم الله على طبيعة الغدر عند اليهود والتي لاتتغير بتغير زمان ولا مكان.
- قيام الدعوة على أساس والمجاهدة للنفس وتطهيرها وتصحيح العقيدة مما يشوبها من تحريفات والتعليم ونشر الوعي الديني .

المحاضرة 3 :

الأمير عبد القادر ،ومنهجه في الدعوة والإصلاح

العناصر:– تمهيد – ثقافة الأمير ،وحرصه على طلب العلم – مكانة العقل والدعوة لنبذ التقليد عند الأمير الداعية. – مؤلفاته.– المجاهدة أصل الجهاد. – شفافيته الروحية ومراحل تصوفه – كرامات المجاهدة، – شهامة الداعية ونبل المجاهد المصلح.

– تمهيد:

لم تكن حركة الاميرعبد القادر الجزائري (1807-1883م) مجرد حركة جهاد عادية ،كثائر عسكري قام لمواجهة حملة استدمارية شرسة حوّلت بلاده فعلا إلى مملك للبؤس، كما يقول(جاك مودول)،بل كانت حركة ذات بعد روحي عميق، لعب فيه التكوين الصّوفي الذي تشبّعت به روح الامير، الدور الأساس في ثورة أذاقت المستدمرين مرّ العلقم ، لم تترك غزوهم لأرض الجزائر الطاهرة مجرد نزهة كما كانوا يعتقدون،،،،

ولعل هذا هو البُعد الغائب أو المغيّب في ما نعرفه عن جهاد الامير و مقاومته .

– ثقافة الأمير عبد القادر،وحرصه على طلب العلم :

عُرف عن الفتى الشاب –كما يقول عنه (برونو إتيين) ، استاذ العلوم السياسية بجامعة (اكس أن بروفنس) بفرنسا، اهتمامه بجمع المخطوطات ،واقتناء الكتب ،حتى شاع في جبال تلمسان أن (المرابط) الشاب يدفع بسخاء لقاء المخطوطات ، حتى غدى منزله عامرا بالكتب العلمية و المخطوطات النادرة(19) ، وكان شديد الولوع بطلب العلم ،حيث درس الفقه والحديث و علوم القرآن ، قرأ (الاتقان في علوم القرآن)، و الالفية في النحو، والعقائد النّسفية في التوحيد ،وقرأ إحياء علوم الدين للغزالي ،و فصوص الحكم و الفتوحات المكية لابن عربي ... وقرأ الفلسفة بدء من ابن باجة ، ابن طفيل ،ابن رشد، ابن سينا ، الماوردي وابن تيمية ، واستهوته الجغرافيا و الفلك ، و التاريخ ، حيث تعرف على ابن خلدون كما يقول(برونو)(20).

– مكانة العقل والدعوة لنبذ التقليد عند الأمير الداعية:

ألف الامير كتابه (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) أوائل الخمسينيات من القرن 19م في (بروسة) بالدولة العثمانية التي أقام بها عام 1270هـ،....تناول في هذا الكتاب قضايا العلم والفلسفة و الدين ،ففي الباب الأول منه تناول فضل العلم و العلماء، تعريف العقل وفضل المدركات العقلية على المدركات الحسية ثم بين العلوم المحمودة و العلوم المذمومة ، أما الباب الثاني فخصصه لبيان فضل العلم الشرعي

---

19)- برونو إتيين، عبد القادر الجزائري،ط2،الجزائر:المؤسسة الجزائرية للاتصال والنشر والاشهار،2001،ص133

20)- نفسه،ص61 ،62

، تضمن مبحثا في إثبات النبوة و معرفة النبي ... أما الباب الثالث فخصصه للحديث عن الكتابة و الحروف العربية وحاجة الناس للتصنيف ... وقد ترجمه مستشرق فرنسي هو(غوستاف دوقا)عام 1858م.

وقد نهج ابنه (محمد) منهج أبيه في (ذكرى العاقل)من خلال تأليف كتابه (ذكرى ذوي الفضل في مطابقة أركان الاسلام للعقل)،الذي طبع في مصر ، عام 1337هـ(21.).

وفي كتابه (ذكرى العاقل) ينوه الأمير بأسلوب قوي حصيف بأهمية الإجتهاد و ينبذ التقليد بإعتباره الطريق للنهضة و التقدم، فنراه يقول: "و المتبعون على قسمين : قسم عالم مُسعد لنفسه مسعد لغيره ،وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد ودعا الناس إلى معرفة الحق بالدليل لا بأن يقلدوه ، وقسم مهلك لنفسه مهلك لغيره ، وهو الذي قلد آباءه وأجداده فيما يعتقدون و يستحسنون ، وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده ، الأعمى لا يصلح أن يقود العميان ، واذا كان تقليد الرجال مذموما غير مرضي في الاعتقادات ، فتقليد الكتب الأولى وأحرى بالذم ، وإن بهيمة تنقاد أفضل من مقلد ينقاد..."

وهذه الكلام ينمّ عن روح الاصلاح التي تشبع بها صاحبه ..فلا جرم أن يعتبره (جرجي زيدان)في كتابه (بناة النهضة العربية)من أهم القادة والسياسة الذين أرسوا دعائم النهضة (22).

– مؤلفات الامير :

من أشهر مؤلفات الامير:

. إجابات الامير ،وهي أسئلة في عبارات صوفية، كشرح قول الغزالي :"ليس في الامكان أبدع مما كان..."

. رسائل في الحقائق الغيبية في شرح بيتين:

رأت قمر السماء فأذكرتني ليالي وصلها بالرقمتين

كلانا ناظر قمرا ولكن رأيت بعينها ورأت بعيني

. رسالة في شرح سورة التكوير (شرحا إ شاريا صوفيا)

. تعليقات على حاشية جده عبد القادر (في علم الكلام) .

. الصافنات الجياد (في محاسن الخيل و صفاتها)

. ذكرى العاقل و تنبيه الغافل (الذي ذكرناه)

. المقراض الحاد لقطع لسان أهل الباطل و الإلحاد

. ديوان شعر ، في أغراض مختلفة..

. المواقف الروحية و الفيوضات السبوحية، وهو أشهر كتبه، كان يلقي مواقفه في مجالس خاصة(وهي واردات و خواطر)، ثم إقترح عليه الشيخ (عبد الرزاق البيطار) أن يدونها، فكان هذا الكتاب بما يشبه مجالس العارف بالله ، الشيخ عبد القادر الجيلاني والتي جُمعت في (الفتح

---

21)-نفسه،ص167.

22)- انظر: عمار الطالبي،ابن باديس،حياته وآثاره،ج1،ط2، ،بيروت:دار الغرب الاسلامي،1983م،ص16، 17.

الرباني و الفيض الرحماني) ، و كتاب المواقف ملخّص في كتاب (بغية الطالب على ترتيب التجلي بكليات المراتب) قدّمه و علق عليه الدكتور الشيخ عاصم ابراهيم الكيالي الحسيني، الشاذلي الدرقاوي..(23)

– المجاهدة أصل الجهاد:

كان الامير الشاب يدرك أن أساس النهضة هو العلم واحترام العقل و الإجتهاد الصحيح ، كان يدرك تماما أن الجهاد العسكري – وهو ذروة سنام الاسلام –، أساسه و ركيزته جهاد من نوع آخر أكثر عمقا وخطورة، وهو جهاد النفس و ترويضها ، ومصارعة الأهواء و تزكية الأنفس من الأدران و مقاومة الشهوات ، وهو ما يعرف بالمجاهدة [والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين] (العنكبوت/69).

ولم تكن عزلته التي تحدثنا عنها ، تهربا من المسؤولية أو ابتعادا عن الخلق ، أو رغبة في النجاة ، وطلبا للسلامة ، بل كانت محطّة للتزود بالوقود لانطلاقة أكثر قوة قال تعالى :[وتزوّدوا فانّ خير الزاد التقوى] (البقرة /197)، و الحكمة العطائية تقول :(ما نفع القلب مثل عزلة يُدخل بها ميدان فكرة)24...

وهو ما يقتضي نوع بُعدٍ(ابتعاد) لصدّ القلب عن الانشغال بهموم الدنيا و مطالبها، وهو بُعدٌ تبتعد عن تناوله كثير من الدراسات التي تتناول الجهاد العسكري من خلال وصف عدد الغزوات و الحروب ، بالانشغال بعدد القتلى و الجرحى،و الاشادة بصورة البطل الثائر و شجاعته ، دون إدراك حقيقي لخلفيتها الروحية، ولعل ذلك مرتبط بتلك الصورة النمطية السلبية التي تحكم موقف الكثيرين تجاه التصوف وما يثيره من لغط حول قيم السلبية و التواكل و الخضوع و الخنوع و الانقطاع عن الدنيا...

كان الامير رجلا عارفا زاهدا ،عرف هذه الحقيقة، فكان في مجاهداته يدرك أن أمر الجهاد يحتاج إلى مجاهدة،، فكان يتأمل فرسه (الحيوان)بعد أن روض فرسه الأولى بأنواع المجاهدات (وربما كانت أكثر جموحا) فيخاطبها بقوله :"أيتها الحرة ، أيتها الأصيلة ، يا إبنتي ، استحلفك لتصغي الي، ربيتك من سلالة الى سلالة ، و و سقيتك آخر الليالي حليب النوق،وشملتك أمي بعنايتها و توجهت إليك جميع العيون، فبيّني لأبناء الخطيئة هؤلاء [يقصد الفرنسيين]ما تتمكنين من فعله، أنقذي نفسك وأنقذي معلمك..."...

وقد صدق الامير وعده، إذ أنه تولى زمام الجهاد فخاض معارك باسلة ضد الكافرين كبدهم خسائر فادحة، منها معركة(خنق النطاح) والتي أبلى فيها بلاء حسنا، حيث قتلت فرسه و تخرقت ملابسه بالرصاص، واضطر العدو إلى عقد هدنة بما عرف بمعاهدة (دي ميشيل) عام 1834م، ورغم كل الجهود فان مشاكل جمة، داخلية و خارجية و خيانة بعض الحلفاء اضطرته إلى الاستسلام عام 1847م، بعد أن خاض حوالي أربعين معركة منها معركة مع ملك المغرب...

---

23)– الامير عبد القادر،بُغية الطالب على ترتيب التجلي بكليات المراتب،ط1، بيروت:دار الكتب العلمية، 1425هـ/ 2004م ، ص21.

24)–نلاحظ أنه ذكر العزلة بالتنكير ،حيث قال :عزلة ولم يقل العزلة، مما يعني التوقيت وعدم الدوام....انظر:عبد المجيد الشرنوبي،شرح حكم ابن عطاء الله السكندري،ط4،دمشق: دار ابن كثير1420هـ/1999م،ص77.

– شفافيته الروحية ومراحل تصوفه : تلقت روح الامير الشاب أثناء رحلته إلى الحج مع والده عام 1825م دفعة روحية عظيمة ،،وبعد عودته إلى الجزائر عام 1828م ،وجد الوضع مختلفا،فآثر نوع عزلة غزالية (نسبة إلى حجة الإسلام الغزالي) للتأمل و الدراسة و البحث،حتى "أبرقت للشاب أيام سعيدة معطرة نظرة مثل الازهار يجلّلها الندى قبل أن تذبلها أشعة الشمس الحارقة "،

يمكننا أن نشير إلى مراحل ثلاث في تصوّف الامير:

المرحلة الأولى: حين سافر للحج مع والده ونزل دمشق، حيث التقى بالشيخ خالد النقشبندي، والشيخ محمود الكيلاني (أو الجيلاني) القادري، ولما رجع إلى الجزائر أنشأ مراكز للتربية على الطريقة القادرية ، وكان تلامذة هذه المراكز ، كما يقول الشيخ عاصم إبراهيم الكيالي، هم الذين غذّوا حركته الجهادية فيما بعد...

المرحلة الثانية: مرحلة عزلته في (أمبواز)كسجين،والمعروف أن السجن،يتحوّل الى خلوة للتأمّل والعبادة، ونحن نتذكر ما قاله (ابن تيمية) عن كيد أعدائه:<<.... ما عسى أن يفعل أعدائي بي؟ :إن نفوني فنفيي سياحة، وإن سجنوني فسجني خلوة،وإن قتلوني فقتلي شهادة .؟!!...>>.

المرحلة الثالثة: مرحلة المجاورة بمكة – حرسها الله – عام 1279هـ، والتقاؤه بالشيخ (محمد الفاسي)– رحمه الله– والذي أخذ عنه الطريقة الشاذلية(25)، وهو ما يذكره في رائيته الطويلة التي تبلغ حوالي مائة وإحدى عشر بيتا،ومطلعها:

أمسعودٌ ،،جاء السعد والخير واليسرُ ووَلّت جيوش والنحس ليس له ذكرُ

ليالي : ليالي صدود،وانقطاع وجفوة وهجران سادات، ولا ذكر الهجرُ

فأيامها أضحت قتاما ودجنةٌ لياليها ،لا نجم يضيء و لا بدرُ

فراشي فيها نحشوه الهمّ والضنى فلا التذّ لي جنبٌ ولا التذّ لي ظهرُ

.....

الى أن يقول:

أسائل كل الخلق ،هل من مخبر يُحدّثني عنكم؟، فيُنعشني الخُبرُ

الى أن دعتني همّة الشيخ،من مدى بعيدٍ،..ألا فادن،عندي لك الذخرُ

فشمّرت عن ذيلي الازار وطار بي جناح اشتياق،ليس يُخشى له كسرُ

.....

إلى أن يقول:

أعني به شيخ الانام،وشيخ من له عمّة ،ذي عذبة،وله الصدرُ

عياذي، ملاذي،عمدتي ثمّ عدّتي وكهفي، إذا أبدي نواجذه الدّهرُ

غياثي من أيدي العداة،ومنقذي منيري،مجيري،عندما غمّني العمرُ

---

25)–الامير عبد القادر، م ،س، ص20.

ومحيي رفاتي ،بعد أن كنت رِمّة(26) وأكسبني عمرا ،لعمري هو العمرُ

محمّد الفاسي، له من محمّد صفي الاله، والحال والشيم الغرّ

بفرض وتعصيب ،غدا إرثه له هو البدر، بين الاولياء،وهم الزّهرُ.....إلى آخر القصيدة.

ولعلّ كل من طالع كتاب (البُغية)يلاحظ عمق تصوّف الامير ،عمق أستاذه (ابن عربي)؛عبارات غامضة ، لا يفهمها من لم يكن عالي الكعب في علوم القوم،حتى أن أحدنا قد يتوهّم فيها دعوى إتحاد أوحلول أو تشبيه أو تجسيم،..... ،ولذا يعمد _ رحمه الله_ الى التحذير من أي فهم ظاهرين أو تأويل سطحي على ما يوقع صاحبه في المحظور فيردى،،،ولذا نراه يبين موقع الادراك العقلي للحقائق الكونية وأسبقية علوم الوهب على علوم الكسب، فيقول: << إياك ،إياك ، أن تتوهم وتتخيّل فيما أذكره في هذا الموقف تشبيها عقليا أو تمثيلا أو حلولا أو اتحادا ، أو سريانا أو امتزاجا أو ارتساما أو انفصالا أومقابلة،أو مقارنة،أو تقديما أو تأخيرا أو قبلية ،أو بعدية، أو كيفا أو كما أو معيّة، أو أينا أو متى أو ترتيبا.....فمن توهّم شيئا من ذلك سقط من مهواة من السقف على أمّ رأسه....>>.(27)

وبذلك يحرص الامير على إثبات التنزيه المطلق للذات العلية (خلاف ما يدّعيه بعض المتنطّعين) فنراه يتحدّث عن الانسان الكامل باعتباره صورة الكون الجامع للحقائق الالهية والكونية، وأنه تعالى أثبت له مثلا في الانسان الكامل ،الذي خُلق على صورته؛ أي أنه يلتحق بالله في صورته المعنوية..(28) ؛لأن العالم كلّه تفصيل لما اجتمع عليه الانسان الكامل، إذ أن الانسان هو العالم الكبير ،وغيره (من الأغيار) هي الانسان الصغير،،، وهو ما يشير اليه قول الناظم:

وتحسبُ أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الاكبرُ

.... ثمّ تزداد تلك المعاني عمقا وصعوبة تستعصي على فهم غير المتمرّس،نراه يتحدّث في فصل حول(إنّك رمز وفتح وكنز)حول تجليات الحقّ، وانعكاس القدرة في مرآة الوجود ،دون قول باتحاد أو حلول.(29)،وكذا في فصل(فصل بلا وصل) ومثالية الآلة الشمعية للتّجلي ،حيث يعمد الى ضرب أمثلة للتجلّي الالهي ،ومعناه أن الله يتجلى لا بذاته (فهو محال) (ويُحذّركم الله نفسه) .(آل عمران/28)، ولكن بصورة لصفاته ؛ إذ الالوهية تُعلم ولا تُشهد من بعض وجوهها ولا تُعلم؛لأن العلم بالشيء يقتضي الاحاطة به من جميع جهاته، وهو محال في حقّ الحقّ.(30)،ويزداد الامر تعقيدا وصعوبة في مقالته حول(إفصاح وإيضاح)،ومقال (وِطاء وكشف غِطاء)، ولا نعتقد أن أحدا يمكنه الحكم الجازم على ما بين يديه من إشارات وتلويحات ، ما لم يكن عالي الكعب في علوم القوم....فهي علوم الخاصّة يُخشى على من يخوض فيها أن يردى ...

---

26)- أي جثّة هامدة .

27)- نفس المرجع،ص 27، 28.

28)-نفسه،ص28.

29)-نفسه،ص،42، 43.

30)-نفسه، ص50.

– شهامة الداعية ونبل المجاهد المصلح.

لم يكن تصوّف الامير بالامر الذي ينأى به عن حركة الاصلاح الاجتماعي أينما حلّ وارتحل؛ لأن المؤمن كالغيث أينما وقع نفع....فكيف إذا كان في مرتبة الامير ؟!...

لم تفتر عزيمة الامير عن العمل الاصلاحي الاجتماعي ،فسرعان ما انظمّ الى جمعية(العروة الوثقى) لمقاومة الاستعمار العالمي،كما يقول الاستاذ (رشيد رضا)، و انظمّ الى الجمعية الماسونية(كما حدث لجمال الدين الافغاني) ،كجمعية خيرية لخدمة الانسانية، إذ لم تكن حقيقتها قد ظهرت بعدُ.

وحقيقٌ بنا أن لا نقع فيما وقع فيه بعض المتسرعين، في القاء الكلام على عواهنه واتهام الامير بالماسونية31، لأن الانصاف يقتضي الحكم عليه باستحضار ظروف الزمان والمكان، وأمر الماسونية جديد ،وأهدافها المعلنة فيها الخير العميم على الانسانية،ولو كنا في زمانه لربما حذونا حذوه، ومن الظلم البيّن أن نحاكمه وفق ظروفنا وما توافر لنا من معطى ومعلوم.....

قام الامير بدور عظيم في إخماد نار الفتنة التي نشبت بين المسلمين والمسيحيين،في دمشق عام 1960م،،ولما بدأت بوادرها تظهر للعيان لم يقف مكتوف اليدين بل جمع أعيان البلد وخاطبهم بأسلوب حكيم ،يذكرنا بأسلوب أستاذنا الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله- قائلا::" إن الاديان ، وفي مقدمتها الدين الاسلامي أجلّ وأقدس من أن تكون خنجر جهاله، أو معول طيش،أو صرخات نذالة تدوي بها افواه الحثالة من القوم، أحذّركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا أو يكون له الى نفوسكم سبيلا....".

وشاءت الاقدار أن يحدث المحذور ،فوقعت الفتنة ،فسارع الامير الى إنقاذ الكثير من المسيحيين ،عدّهم البعض بحوالي خمسة عشر ألفا،منهم راهبات ورهبان،كما ساعد الكثير منهم على السفر الى بيروت، وقد دفع ثمن ذلك غاليا ؛ حيث قُتل عدد من أصحابه ومرافقيه من المغاربة،وولغت في عرضه بعض الالسنة تتّهمه بموالاة النصارى والدفاع عنهم ونصرتهم ضد المسلمين!!...

ولا عجب أن يقف الامير موقفا شهما أملته عليه عقيدته وأخلاقه،كما يقول،،وهو موقف الداعية المخلص المخلّص، والدعوة في حقيقتها دعوة للسلام ونفي التعصب المقيت ونفي الظلم حتى لو كان المظلوم كافرا،قال تعالى" ولو كنت فضًا غليظ القلب لانفضّوا من حولك ،فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر" (آل عمران/159). وقال: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ،ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتّقوى)(المائدة/8)

كما عُرف عن الامير **شدّة برّه بوالديه**،امتنع عن الحج ،رغم شدة اشتياقه اليه،رغبة في قيامه بواجب رعاية أمه المريضة،السيدة الفاضلة(الزّهرة بنت محمد بن دوحة الحسيني) ....إلى أن توفيت- رحمها الله- عام 1278هـ عن ثمانين سنة.....غادر الامير حاجا في العام الموالي لوفاة أمه ،وبقي عاما كاملا مجاورا لا يغادر حجرته إلا إلى الحرم، لا ينام إلا أربع ساعات، ولا يأكل إلا مرة واحدة،مجاهدةً لنفسه وترويضًا لها لتعطيه قيادها ،وهنا أخذ عن (الشيخ الفاسي) أصول الترقّي في مدارج السالكين....

وافى الامير الأجلُ بدمشق ليلة 19 رجب 1300هـ/24 ماي 1883م، عن عمر ستة وثمانين عاما ،ودُفن الى جوار أستاذه الشيخ (محي الدين بن عربي)- رحمه الله- بالصالحية(دمشق)...

- **أهم ما يستفيده الدعاة من تجربة الأمير في الدعوة والإصلاح :**

اليوم نحن في أمسّ الحاجة ،ونحن نعيش في عصر التحديات الكبرى، الى استحضار منهج الامير الامام الداعية والمجاهد الرباني ، لتوجيه مسار الدعوة في دروب المجاهدة والجهاد، في عملية تغيير واعية،تأخذ بعين الاعتبار تغيرات الزمان وظروف المعادلة الاجتماعية للمجتمع الجزائري التي بلا شك قد شابتها كثير من الملابسات الجديدة ،سلبا وإيجابا.

-طلب العلم الشرعي ليحصّن نفسه من الوقوع في التعسّف في الاحكام ،وأن تكون له ثقافة واسعة ليحسن التعامل مع العوارض .

- الاهتمام بمجاهدة النفس الامارة بالسوء وإصلاح القلب ؛لأنه أساس أي حركة ناجحة ،فإصلاح الباطن أساس إصلاح الظاهر،،وقد قيل أن من لم تكن نبدايته محرقة لم تكن نهايته مشرقة..

- أن لا ينكفيء الداعية على نفسه ويعتزل الناس بحجة الاصلاح الذاتي ،بل عليه أن يخالط الناس ويصبر على أذاهم (وقد حصن نفسه من الشبهات والزلات)،وعليه أن يمارس الدعوة والاصلاح في كل مكان،وأن يساعد الآخرين حتى من غير المسلمين كما فعل الامير في فتنة بلاد الشام عام 1860م.....

- التصوف الحقيقي: تزكية نفس ومجاهد طبع،ومغالبة شهوات، وهو معنى قوله تعالى:" قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها"،،وقد كان الصحابة الكرام مضرب المثل في ذلك كما اتضح من خلا سيرتهم وهم الذين رباهم الرسول على عينه،ومثّلوا خير القرون،،،أما ما يدعيه البعض من دروشة فهو بعيد كل البعد عن هذا المعنى السني الذي سار عليه الامير عبد القادر- رحمه الله تعالى رحمة واسعة- ..

المحاضرة :4

الأستاذ الداعية عبد القادر المجاوي

– تمهيد: كادت شخصية الشعب الجزائري العربية الإسلامية أن تُمسخ تماماً لولا أن قيّض الله رجالاً يتمّون نوره الذي أراد هؤلاء إطفاءه بأفواههم مصداق قوله تعالى: ﴿ **يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون** ﴾ **–التوبة/32–** ..وهؤلاء هم امتداد لجهود مدرسة الإصلاح في المشرق الإسلامي، الذين ركّزوا على التربية والتعليم وخدمة الإسلام والعربية والوطن ممن حملوا شعار الاصلاحية الاسلامية:" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"(الرعد/11)، ومن أشهرهم الشيخ (صالح بن مهنا)، الشيخ (عبد الحليم بن سماية) والشيخ(عبد القادر المجاوي)، المولود بن الموهوب(أستاذ مالك بن نبي)،حمدان لونيسي،(أستاذ ابن باديس)، وغيرهم.

في بدايات القرن العشرين زاد انتشار فكر الجامعة الإسلامية ومنهجها في التغيير والإصلاح خاصة بعد زيارة الشيخ (محمد عبده) للجزائر عام 1903م ولقاؤه ببعض علماء الجزائر، وكان لمجلة العروة الوثقى ثم المنار تأثير كبير يتداولها الطلبة والشيوخ، ويدل على ذلك أن الشيخ (بن سماية) اعتبر (المنار): " مدد الحياة "كما سيأتي . (32)

فطنت الإدارة الاستعمارية لخطورة هذا الفكر، فأصدرت قرارها عام 1908 بمنع الحج، وقد عزت معظم الثورات في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى دعاية الجامعة الإسلامية وإلى التعصّب (33). غير أن المشكلة الأساسية بالنسبة لفرنسا،– والتي لم تجد لها حلاً حاسما– هو كيفية قمع أو حتى الحد من الأفكار التحررية؛ فإن كان من الممكن نفي الأشخاص أو حتى قتلهم ، فكيف لها بنفي الأفكار أو قتلها ؟؛ **إذ أن الفكرة الحيّة لا تموت بموت صاحبها بل على العكس تزداد انتشاراً** ...

– جهود المجاوي في الدعوة والإصلاح:

غرس المجاوي بذورا صالحة قبل موته بقسنطينة عام 1332هـ/1913م، أثمرت رجالا حملوا راية الإصلاح منهم: الشيخ (حمدان لونيسي)أستاذ الإمام الأكبر عبد الحميد بن باديس والشيخ (المولود بن الموهوب) مفتي قسنطينة.(34).

وكان المجاوي من الشخصيات الجزائرية التي تركت أثرا ملموسا في الحياة الثقافية أواخر القرن الماضي، و أوائل القرن الحالي،. ، فقد كان من كبار علماء الإصلاح، درس بالمغرب وأتم دراسته بجامع القرويين، رجع إلى قسنطينة مدرسا بجامع ومدرسة الكتاني كان قبلة لطلاب

---

(1) – ، عمار الطالبي، ،ابن باديس،حياته وآثاره، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1403 هـ/1983 م، الجزء 1، ص ص 25 ... 27 و 34 .

(33– أبو القاسم سعد الله ، م.س ، ص 123 .

(34)3– نفسه،ص 24.

العلم من كل الجهات كما درس بالمدرسة الثعالبية بالجزائر، كان–رحمه الله– غزير العلم واسع المعرفة حتى اعتبره أحد الباحثين دائرة معارف كاملة(35).

كان منهجه في الإصلاح التركيز على إلى إصلاح التربية والتعليم باعتباره أصل كل تغيير اجتماعي حقيقي وله في ذلك كتاب "إرشاد المتعلمين"،و مثل الاستاذ ابن مهنا، يدعو على تعليم المرأة لأنها أصل في تربية النّشء وإخراج أجيال التغيير والإصلاح، كما كان ينتقد الطرق التقليدية في التعليم مؤكدا على دور العقل ومكانته وأنه لا يعارض الوحي وكان حربًا على الفكر الخرافي والدجل والبدع التي تبثها الطرقية في الجزائر، يدعوا إلى نبذ العادات والتقاليد المنسوبة إلى الإسلام، كما يدعو إلى إصلاح خطبة الجمعة (36)، ونظرا لمكانته وشخصيته القوية وازدواجية ثقافته العربية والفرنسية فقد كان موضوع احترام وتقدير من قبل الجميع حتى من جماعة النخبة الذين كانوا عادة ما يسخرون من العلماء المحافظين لعقدة الاستعلاء التي كانت تحكمهم.

– ميلاده ومساره العلمي :

ولد عبد القادر المجاوي في تلمسان (سنة 1267هجرية/1848م) من أب يدعى (محمد عبد الكريم)، وبعد دراسته في مسقط رأسه انتقل لمتابعتها في كل من فاس وطنجة وجامع القرويين على الخصوص بالمغرب الأقصى ثم عاد إلى الجزائر سنة(1292هجري)، وقد أدى فريضة الحج ليتولى التدريس أولا في قسنطينة حيث أقام وتزوج فيها وأنجب.درّس في كل من جامع الكتاني ابتداء من سنة 1292هجري، و المدرسة الحكومية سنة 1295، بالإضافة إلى نشاطه في الدعوة لنشر الوعي الديني خارج عمله الرسمي كمدرس ومحاضر في المدارس الحرة و المساجد، كمسجد سيدي الأخضر، فأحدث تأثيرا كبيرا في الأواسط الفكرية و الشعبية بدروسه ومحاضراته العامة، أما دروسه الرسمية فقد تنوعت بين المنطق والبيان والمعاني واللغة و النحو والفلك، وفي السنة(1315 هجري/1858 ميلادي) انتقل المجاوي إلى العاصمة للتدريس في مدرستها العليا (الثعالبية) كما عين إماما خطيباً بجامع سيدي رمضان بالجزائر العاصمة سنة 1326هجرية (1908م) و بقي في قمة نشاطه: إماما قديرا وأستاذا متمكنا و مؤلفا نشطا ورجل إصلاح في جميع الحالات بمستوى الوضع والظروف، و قد تخرج عليه في التدريس كثيرون مثل : حمدان الونيسي و أحمد الحبيباتي والمولود بن الموهوب وهم من الذين كان لهم تأثيركبير في الحياة الاجتماعية و الفكرية. اتّسم المجاوي بالموسوعية العلمية، و قد وصفه الأستاذ ابن أبي شنب ب "بصاحب المعارف الواسعة":وقد كان: "ريانا من العربية، فقيها متضلعا، مشاركاً في الكثير من العلوم، منها علم الكلام، علم الاقتصاد السياسي، والعلم التربوي، وعلم الهيئة، عكف عن التدريس، فتخرج عليه من التلامذة من أصبحوا بدورهم أساتذة."

---

(35)1– تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ،الجزائر:الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،د،ت،،ص 106

(36)2– عمار الطالبي،ابن باديس، حياته وآثاره،ط2،بيروت: دار الغرب الاسلامي،1403هـ/1983م،ج1، ،ص 20...23.

أسهم إسهاما جيدا في حدود إمكانياته من أجل نهضة ثقافية، كما شارك في إحياء اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وبذل جهداً جهيدا في سبيل ارتقاء مستوى الجزائر حسب اتجاهات جيله الشريفة. وكانت معظم كتاباته موجهة ضد الآفات الاجتماعية والخرافات والعادات القديمة.

إهتم المجاوي بالتربية والتعليم منذ 1877م فألف رساته:"إرشاد المتعلمين"،،، دعا فيه الى اليقظة وتعلم العلوم بكافة أنواعها واتقان اللغات الاجنبية ،و أكد كثيرا على عدم التناقض بين العقل والنقل،(37) ثم كتب :"اللُّمع في نظم البدع"الذي طبع عام 1902م،يشرح فيه قصيدة ألفها تلميذه ابن الموهوب، تسمى (المنصفة)،(38) ،، غرس المجاوي بذورا صالحة قبل موته بقسنطينة عام 1332هـ/1913م، أثمرت رجالا حملوا راية الإصلاح منهم: الشيخ (حمدان لونيسي)أستاذ الإمام الأكبر عبد الحميد بن باديس والشيخ (المولود بن الموهوب) مفتي قسنطينة.وأستاذ مالك بن نبي والشيخ اطفيش شيخ الاصلاح والدعوة بمنطقة ميزاب....

توفي الأستاذ "عبد القادر المجاوي" (رحمه الله) بقسنطينة 1913م، وبها دفن تاركا وراءه أثرا طيبا في بعض شباب تلك الفترة وشيوخها، كما ترك مؤلفات اختلفت نوعا و كيفا، ولكنها جميعها جاءت من وحي ما علم للطلاب، و ما تدارس مع تلامذته و زملائه، تجاوزت هذه المؤلفات خمسة عشر عملا: في اللغة و النحو، والبلاغة و الدين، وعلم الفلك. (39)،

– من مؤلفاته:

- ((إرشاد المتعلمين)):
- اللمع في نظم البدع.
- ((نصيحة المريدين)): رسالة توجيهية نشرت في تونس.
- ((شرح ابن هشام)): كتاب في اللغة والنحو والبلاغة، طبع بقسنطينة.
- ((تحفة الأخيار فيما يتعلق بالكسب والاختيار)).
- مخطوطة ((منظومة في علم الفلك))

والعديد من الكتب والمخطوطات الأخرى.

37- أبو القاسم سعد الله، ،تاريخ الجزائر الثقافي، ج7،ط1،بيروت: دار الغرب الاسلامي،1998م،ص196

- 38- نفسه، ص173

39 -3 عمار الطالبي،م،س،،ص 24 1

المحاضرة:(5)

الأستاذ الداعية المصلح الشيخ عبد الحليم بن سماية

هو عبد الحليم بن علي بن سماية ، ولد بالجزائر عام 1242 هـ/1866 م هاجر مع جده لامه إلى مصر على عهد (محمد علي) درس هناك ثم عاد إلى الجزائر مدرساً في الجامع الجديد بالعاصمة .

ثقافته: درس على يد والده أولا الفقه والتوحيد، كان عصاميا حيث اعتمد على نفسه في حفظ المتون، من أجلة أساتذته المكي بن عزوز، أبو القاسم الحفناوي، السعيد بن زكري.....لما اشتد عود تمكنه العلمي تولى التدريس في مدرسة بباب الواد عام 1896م مع الشيخ المجاوي.

درّس الطلبة رسالة التوحيد لمحمد عبده حرصا منه على ترسيخ العقيدة الصحيحة في نفوس الطلاب،كما حرص على تدريس البلاغة وأسرار اللغة، وهو أول من درس " أسرار البلاغة للجرجاني ودلائل الاعجاز"40... قام بدور كبير في تعليم ونشر الوعي الديني بين جيل من الطلاب بالمدرسة الثعالبية . ، وكان عالما متفتحا على علوم عصره درس الموسيقي وتعلم العزف على العود،مما يدل على تفتحه، كما درس ألفية ابن مالك بشرح بن عقيل، ودرس العقد الفريد ونهج البلاغة وديوان الحماسة، كما درس المنطق، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي...مما يدل على سعة علمه..

درّس لطلبة السنة الرابعة بالثعالبية ألفية إبن مالك بشرح ابن عقيل،العقد الفريد،نهج البلاغة،كما درس: "الاقتصاد في الاعتقاد "للغزالي،وقد كان الطلبة يجمعون له شبه أساتذة الفلسفة فيرد عليها وألف فيها " رسالة في التوحيد والرد على شبهات المبطلين والملحدين.".

ألّف بعض الكتب منها: كتاب: "فلسفة الإسلام" ، قرأ جزء منه في مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع عشر المنعقد في الجزائر عام 1905م ...كما كتب مقالات في جريدة ":"كوكب افريقيا"،،، ومن وطنيته ما ذكره المحقق الجزائري الكبير عمار الطالبي أن ملك المغرب لما زار الجزائر عام 1319هـ دعاه للغذاء معه مع الوفد إعتذر إليه بأبيات شعرية (وكان يقول الشعر)، والسبب هو حتى لا يجلس مع الوفد الفرنسي، ... التقى بالشيخ محمد عبده في زيارته للجزائر عام 1903م ونظم قصيدة بالمناسبة ، وكانت بينهما مراسلات..41

يقول فيه الشيخ محمد رشيد رضا:"...ومن خيار علماء الجزائر الشيخ محمد بن خوجة والشيخ عبد الحليم بن سماية وقد عهد هؤلاء الفضلاء الى الشيخ محمد عبده أن يوصي صاحب المنار بأن لا يذكر في مجلته فرنسا بما يسوؤها لئلا تمنع المنار من الجزائر ، وقالو له :" إننا نعدها مدد الحياة لنا فإذا انقطعت انقطعت الحياة عنا".42

توفي رحمه الله في 7 رمضان 1351هـ/4جانفي 1933م..

وعموما فإن المراجع قليلة عن حياة الشيخ الداعية بن سماية ،،،

عمار الطالبي، ،ابن باديس،حياته وآثاره، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1403 هـ/1983 م، الجزء 1، ص.29 40 -

نفس المرجع، ص، 32، 33،- 41-

--نفسه، ص34 42-

المحاضرة 6:

الأستاذ المصلح محمد بن مصطفى بن الخوجة:

- **نشأته :**

ولد بالعاصمة عام 1281هـ/1865م درس في مسجد (سفير)بدء من عام 1895م،،عرف عنه الحرص على مطالعة كل ما يرد من المشرق من كتب ومجلات وخاصة كتب الزعيم الاصلاحي محمد عبده ،كما كان يقوم بشرح مقالات رشيد رضا في المجالس ، حتى أنه لما وصله تفسير رشيد رضا لسورة العصر درسه عشر مرات، وكانت له علاقة مراسلة مع رشيد رضا حتى وصفه: بأنه العالم صاحب التصانيف المشهورة،،،وهو ما أثار عليه السلطة الاستدمارية فقامت بعزله من وظيفته كوكيل لمدرسة الثعالبي،،

– ثقافته:

عرف بقول الشعر وسعة المطالعة قال عنه محمد راسم:" الشيخ محمد بن مصطفى بن خوجة شاعر الجزائر في وقته وافصح علمائها وأعلمهم بتراجم علماء الجزائر ، كثير الاطلاع ولوع بالكتب العصرية شغوف بمحبة محمد عبده،وهو الذي أدخل مذهبه الى الجزائر وعرف الناس به وبجمال الدين وأصحابهما ، يعرف الشرق كأنه عاشره مائة سنة ،حلو الكلام كان إذا خطب يستدل بالآيات والأحاديث كأن القرآن وكتب الآثار مرآة أمام عينيه"،له ديوان شعر فقد مع الاسف.

- **أسس الدعوة والإصلاح عند بن الخوجة:**

1–إصلاح حال المرأة : لاعتقاده أن أساس صلاح المجتمع إصلاح أمور المرأة ،كتب في المجتمع والاسرة وحقوق المرأة، كتاب:" الإكتراث في علوم الإناث"طب عام 1895م و" اللباب في أحكام الزينة والحجاب"43 طب عام 1907م،

2–ذم التعصب : كان دائم التنبيه الى خطورة التعصب باعتباره غشاء العقل وخصم المنطق،وكتب في ذلك كتاب سماه:"إقامة البراهين العظام على نفي التعصب عن دين الاسلام" طب 1902م

3–الدعوة للاجهاد: كان لبن الخوجة موقف حاسم من الاجتهاد الديني وضرورته في ذلك العصر ؛باعتباره أساس النهضة والتقدم ن ولهذا حرص على تحقيق تفسير عبد الرحمن الثعالبي المسمى :" الجواهر الحسان" في سبع نسخ كاملة ،،،كما عمل على نشر مخطوط نادرللسيوطي في الدعوة للاجتهاد بعنوان:" الرد على من أخلد الى الارض وزعم أن الاجتهاد في كل عصر فرض".وكان دائما يؤكد على مرونة الشريعة وتبدل الأحكام بتبدل الزمان والمكان،

43- انظر:سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،ط1،ج7، م،س،ص186

4-التأكيد على وجوب الاستفادة من العلوم العصرية:لأن أساس النهضة التفاعل الايجابي مع بقيية الحضارات،تماما كما استفادت حضارتنا في عصورها الذهبية، كما أخذ الغزالي المنطق من اليونان ،،،وهو ما أكد عليه في كتاب ضمنه مجوع مقالات في الدعوة والاصلاح ،وقد تأثر فيه كثيرا بكتاب أقوم المسالك للمصلح المعروف خير الدين التونسي(ت 1307هـ)،وكتاب نهاية الايجاز لرفاعة رافع الطهطاوي.....وكان شديد التأثر بمحمد عبده مثل ابن سماية حيث رثاه بعد موته بقصيدة مؤثرة،،،ولهذا يقرر عمار الطالبي أن للشيخ محمد عبده مدرسة في الجزائر رائدها الأول : محمد بن مصطفى بن خوجة،وعبد الحليم بن سماية....44

والملاحظ أن لمحمد عبده تأثير كبير جدا على حركة النهضة والاصلاح في الجزائر حتى أن أحدهم كتب بعد خبر موته يقول:"...حتى كاد يقع لبعض الجزائريين ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب بعد موت خير الانام ،حيث قال للناس:" من قال منكم :مات محمد ،أضرب عنقه".45

- وسائل الدعوة والاصلاح عند مصطفى بن الخوجة:

يظهر من خلال ما يذكره أبو القاسم سعد الله أن مصطفى بن خوجة قضى حياته:"بين المسجد وجريدة المبشر وتأليف الكتب،ونشر الدعوة بالخطبة في المساجد ، وكان من الخطباء الين يشار اليهم بالبنان، فصاحة وبلاغة، جامعا بين الشعر والنثر،مؤمنا بابلاصلاح وفق منهج الامام محمد عبده على أساس التربية ونشر الوعي الديني بعيدا عن أتون مستنقعات السياسة،،،،وقد وصفه عمر راسم بأنه :" **أب النهضة الجزائرية**"46

المحاضرة 7

المولود بن الموهوب، الداعية المثقّف

- دور التربية والتعليم في النهضة عند الاستاذ المولود بن الموهوب:

كان الشيخ المولود بن الموهوب أستاذا للفلسفة والعلوم الإسلامية والأدب العربي بالمدرسة الجزائرية الفرنسية بقسنطينة، وكان يقيم محاضرات بنادي صالح باي يؤمه الكثير من الناس. وكان الشيخ (المولود بن الموهوب) في مقدمة من أدركوا -ربما أكثر من غيره- خطورة التعليم في نهضة الأمم ، فأعلنها حرباً على الجهل ، وقد علّمه التاريخ أن تحرر أي شعب متوقف على يقظته العقلية وأن كل الآفات في الجزائر (مثل قانون الأهالي والمحاكم الاستثنائية) لا تنتهي إلاّ بإنشاء " المدارس ، المدارس ثم المدارس" (تكرارها دليل أهميتها)،.. وجهود هؤلاء العلماء

44-انظر عمار الطالبي،المرجع السابق، ص: 37...39

45-نفسه،ص41،..و رغم ما في ذلك من مبالغة، إلا أن محمد عبده ومدرسة المنار تعتبر حلقة وصل ثقافي هامة بين المغرب والمشرق.

46- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1،بيروت:دار الغرب الاسلامي،1998 ،ص83...85

كانت مقدمة لجهود رجال الإصلاح على رأسهم الشيخ الإمام(عبد الحميد بن باديس) الذي أسس مع ثلّة من العلماء (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

تميز فكره الإصلاحي بالإيمان بفكر التقدم والأخذ بالعلوم الحديثة وكان يدرس بالعربية ويعرف الفرنسية مما جعل فكره شموليا، كان كسلفه – الشيخ المجاوي- يركز على إصلاح مناهج التعليم مع التسامح والعودة إلى الأصول ومحاربة الجهل والتعصب والاتكالية والكسل، ولهذا كان يرى أن أصل أزمة أي مجتمع تكمن في أمراضه الداخلية، جهله، تعصبه، كسله،... ولهذا كان يلحّ في ضرورة إنشاء المدارس ودراسة العلوم التقنية كالزراعة، الطبيعة، الكيمياء، الرياضيات، وكان يؤمن بأن " احترامنا متوقف على جودة عملنا.. " .(47)

في عام 1909 م ألقى خطبة في افتتاح المدرسة الجزائرية-الفرنسية بقسنطينة بعنوان:"الجزائريون والحضارة" أثبت فيها فكرة التقدم في الإسلام مستشهدا بسيرة الرسول(صلى الله عليه وسلم) وبعدد من المفكرين الغربيين ،ك(فكتورهيغو) (وفولتير) و(شكسبير) الذي استشهد بكلمته في التسامح :" إنك قد تحصل بابتسامة على ما كنت تنوي الحصول عليه بالقوة " .. كما كان يدعو إلى التأني وعدم العجلة في عملية التغيير مستشهدا بقول رجل سويسري لأولاده لدى محاولتهم تسلق جبل:" تحركوا ببطء لكي تتسلقوا بسرعة "، وهو ما يعبر فعلا عن عقلية شديدة الوعي بمنهج علمي ايجابي في التغيير الاجتماعي عن رأيه في الإصلاح والتغيير كما سنراه عند أحد أبرع تلاميذه وهو (مالك بن نبي)، كما كان (بن الموهوب) يدعو في خطبه الجزائريين لليقظة ويصرخ فيهم : "استيقظوا،،، استيقظوا وأيقظوا إخوانكم ..."(48)

– قيمة الفعالية في الرؤية الحضارية عند بن الموهوب: كان لابن الموهوب رؤية حضارية حصيفة، مؤمنا بفكرة الجامعة الإسلامية، ففي محاضرة له عام 1910م شرح لمستمعيه مفهوم الحضارة الحقيقي بأنها ليست الزنا والكحول والأفعال الرديئة، ولكنها برنامج للعناية الصحية والعمل والعلوم والتسامح والتضامن والتقدم، وقد نظم لطلابه بنادي صالح باي عام 1911م شعرا حفظوه وتغنوا به ،لمعانيه أبعاد عميقة في الإصلاح المنشود يقول فيه(مترجما):

...إن العلم يزدهر بالعمل.
وإن الكسل يقتل موهبة الإنسان.
فاعملوا بجد أيها الشباب لتحصلوا على مكان مشرف.
اطمحوا مثل الآخرين إلى المجد.....
لا تيأسوا؛ لأنّ الله يسعف دائما أولائك الذين يفعلون الخير.
ألستم انتم نسل شعب عظيم؟.!!..
ألستم أبناء رجال شجعان؟!!...

---

(47)- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية،ج2، م.س،ص 158،159

(48)2 - نفسه ص 160 .

ولهذا لا عجب أن يشهد المؤرخ الجزائري(أبوا القاسم سعد الله) أن الجزائر لم تعرف مثقفا فهم وأثر في تاريخ بلده منذ (حمدان خوجه) مثل هذا المفكر المصلح، بل أن حركة هذا العالم المفكر المستنير كانت أكثر فعالية واستمرارا... (49) لقد أضفى هذا الرجال على الحركة الإصلاحية صبغة جديدة ربما تكون غير معهودة وهي الفعالية حيث تحولت كتلة المحافظين من مجموعة مفككة وبدون فعالية إلى مجموعة نشطة مؤثرة تتمتع ببرنامج إصلاحي معين...ونجح في تجديد بعض العلماء والنوّاب في المجالس المحلية وأعضاء النخبة ومعظم الطلبة وبإتقانه الهجوم المباشر على الإدارة الفرنسية وحصر نفسه في برنامج إصلاحي، لم يؤمّن (ابن الموهوب) فقط نفسه ضد إمكانية نصب العراقيل أمامه، بل كسب عاطفة بعض المثقفين الفرنسيين (50)والمتخصص في مثل هذه الأفكار المستنيرة في التقدم والعصرنة والتي يقولها عالم شرعي في ذلك الوقت لا يسعه إلا الاعتراف بدور هذا الرجل العظيم في يقظة الجزائريين ، ونعترف بأثرها في طلبة والذين كان منهم المفكر الكبير مالك بن نبي – رحمة الله – الذي لا شك عرف هذه الأفكار و شكلت نواة أفكاره حول مشكلات الحضارة فيما بعد.

وقد كان لأفكار هذا العالم المصلح تأثيركبير في عقول طلبته حيث شكلت عامل جذب وشد إلى أصول دينهم وحضارتهم بحيث يمنعها من الانسلاخ نحو الفكر التغريبي كما وقع بجماعة النخبة وكان المفكر الكبير (مالك بن نبي) -- – رحمه الله– من طلبته ،درس عنه مادة التوحيد والسيرة (51).

المحاضرة 8

الداعية المصلح والعلامة المحقق :محمد بن أبي شنب

لم يكن المحتل الفرنسي يهدف إلى السيطرة على البلاد ونهب ثرواتها والتسلط على أهلها فحسب مثلما يفعل غيره، بل كان يرمي – إضافة لذلك– إلى اقتلاع التاريخ وطمس الهوية والقضاء على الشخصية ومحاربة الدين واستبدال لغته باللغة العربية وثقافته بثقافتها.واستخدم في تحقيق ذلك كل ما يملك من وسائل وإمكانات، منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر؛ فاستولى على معظم معاهد التعليم الجزائرية وحولها إلى ثكنات عسكرية أو معاهد فرنسية أو مراكز تبشيرية لنشر المسيحية بين أهالي البلاد المسلمين، ثم استولى على الأوقاف التي كانت تنفق على هذه المؤسسات التعليمية حتى يقضي عليها تماما، وقام بفرنسة جميع مراحل التعليم حتى يبعد اللغة العربية عن معاهد العلم، وبفرنسة الإدارة حتى تصبغ الحياة الجزائرية بطابعها الفرنسي.

---

(49)2-أبو القاسم سعد الله،م، س، ، ص 1962، 1963

(50)1- نفسه ،ص 164

(51)2- مالك بن نبي ، مذكرات شاهد للقرن مالك بن نبي ،م،س،ص الطفل الطالب ،ط2 ،الجزائر ودمشق :دار الفكر 1404هـ/1984م،ص66.

ولكي يقطع المستعمر صلة الجزائر بتاريخها العربي الإسلامي عمد إلى تشويه التاريخ الجزائري فحرم الجزائريين من دراسة تاريخهم دراسة سليمة ووافية في الوقت الذي كانوا يدرسون فيه التاريخ الفرنسي كاملا في جميع المدارس، ومنع المدارس العربية التي سلمت من أيدي الاحتلال – ومعها المساجد– من تدريس التاريخ الإسلامي، وعدّ الفتح العربي الذي نشر الإسلام في الجزائر ودام نحو 13 قرنا احتلالا عربيًا، وأنه جاء ليخلص الجزائر من هذا الاحتلال!

وكادت هذه الأساليب الماكرة تؤتي ثمارها لولا مقاومة الجزائريين وجهود الغيورين من أبنائها في الوقوف أمام هذه المخططات التي أفسدت الحياة الثقافية وأوشكت أن تقطع الصلة بين الأمة ولغتها وتاريخها، ومن هؤلاء الغيورين محمد بن أبي شنب الذي ما كان أحد يظن أن تخرج هذه الأرض المحتلة رجلاً مثله يتقن الفرنسية ولا يغفل عن الأخذ من علوم العرب والإسلام.

– تكوينه العلمي .

في قرية "المدية" بجنوب الجزائر التي تبعد عن العاصمة بنحو 90 كيلومترًا ولد محمد بن العربي بن محمد بن أبي شنب يوم الثلاثاء الموافق (10 من رجب 1286 هـ= 26 من أكتوبر 1869م)، ونشأ في أسرة تعود جذورها إلى مدينة "بروسة" التركية (المدينة التي نفي اليها الامير عبد القادر) وكانت على جانب من الغنى واليسار تعمل بالزراعة.

وقد عنيت هذه الأسرة بتربية ابنها وتعليمه؛ فحفظ شيئا من القرآن وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم التحق بالمدارس المدنية التي أنشأتها فرنسا وفق خطتها في نشر ثقافتها؛ فتعلم الفرنسية وقرأ آدابها وتاريخها، وبعد أن أنهى تعليمه الثانوي التحق بمدرسة دار المعلمين الفرنسية بـ"أبو زريعة" بالقرب من الجزائر، وقضى بها عامًا للدراسة تخرج بعدها مجازًا بتعليم اللغة الفرنسية وآدابها في المدارس الابتدائية.

– **تدريسه**. عقب تخرجه عمل بالتدريس في المدارس الابتدائية إلى جانب دراسة علوم العربية وشيء من الفقه والتوحيد، ثم نجح في الحصول على شهادة مدرسة الآداب العليا، فعين مدرسا للأدب العربي في مدرسة قسطنطينية سنة (1316هـ= 1898م)، ثم نقل إلى مدرسة الجزائر سنة (1319 هـ=1901م)، وظل يعمل بها 14 عاما، ثم رُقي إلى القسم الأعلى من هذه المدرسة حيث قام بتدريس النحو والأدب وعلوم البلاغة والمنطق.

ولم تنقطع صلته طوال هذه الفترة عن طلب العلم؛ فهو طالب ومعلم معا، حتى كلل جهوده بنيل درجة الدكتوراة من القسم الأدبي بكلية الآداب بالجزائر بعد أن قدم رسالتين وضعهما بالفرنسية، الأولى عن حياة الشاعر العباسي أبي دلامة، والأخرى بعنوان الألقاب الفارسية والتركية الباقية في لغة العامة بالجزائر، وعلى إثر حصوله على درجة الدكتوراة انتقل سنة (1343 هـ=1924م) مدرسًا إلى كلية الآداب.

– نشاطه العلمي والدعوي:..

إقتصر نشاط محمد بن أبي شنب على الدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية وتحقيق الكتب، وهو بذلك أقرب إلى العلماء المحققين منه إلى الكتاب والأدباء، ولم يكن يعنى بجمال الأسلوب أو بلاغة العبارة، ولما سئل عن ذلك أجاب بقوله: "خذ العلم، وماذا يعنيك أكان بأسلوب

طلي أم كان بأسلوب غير طلي، وحسبك أنك فهمت عني ما أريد، ولا تغرنكم زخارف الألفاظ وتزويقاتها، وهل اللغة وأساليبها إلا أداة للفهم والتفهيم؟!". وكان ابن أبي شنب عالما بالعربية، متبحرًا في علومها وآدابها، يحفظ كثيرًا من نصوصها ومفرداتها حتى وصف بأنه "معجم يمشي على الأرض" لكثرة محفوظه من مفردات اللغة المدونة بالمعاجم العربية، وكانت له عناية بجمع الكلمات الكثيرة والتراكيب اللغوية التي تجري على ألسنة الأدباء في القديم والحديث ولم تدون في المعاجم ثم يقوم بدارستها درسا وافيا ويحاول ردها إلى أصولها العربية، ولم تكن مثل هذه المهمة سهلة بل تحتاج إلى معرفة تامة بالقديم وبصر دقيق بالحديث حتى يستطيع التوفيق بينهما في سهولة ويسر ودون تعسف أو تلفيق.

وأدّاه حرصه على اللغة العربية إلى حرص شديد على تجنب استعمال اللفظ الدخيل في اللغة والاجتهاد في اجتنابه ولو بالاستعاضة عنه بغريب اللغة المهمل الذي بطل استعماله. وكانت أبحاثه في اللغة والأدب مبتكرة طريفة، وله مقالات علمية نشرت في الدوريات العربية والأجنبية، وله دراسة قيمة نشرت في كتاب سنة (1341هـ= 1922م) بعنوان "رموز الاختصار العربية" ضمنه نحو 100 كلمة من الكلمات المستعملة في كتب مؤلفي العرب، في الفقه والحديث والفلسفة، وذكر أمام كل كلمة طريقة اختصارها، أي الحروف التي تؤخذ منها لتدل عليها، وكان يترجم كل كلمة إلى الفرنسية مع إضافات للشرح والتفصيل في بعض الكلمات.

وقال ابن أبي شنب في مقدمة بحثه الطريف: إنه وقف في أثناء مطالعاته على كثير من هذه الاختصارات العربية فرأى أنه من المفيد نشرها، وإن كان لا يعلم إن كان أحد قد سبقه إلى جمعها على هذه الصورة أم لا. ومن نماذج هذه الاختصارات :"رح": ويعني رحمه الله ."رضه": ويعني رضي الله عنه. "المص": ويعني المصنف. "التس": ويعني التسلسل." ه": ويعني هذا الرمز كلمة انتهى.

– **ثقافته:** جمع محمد بن أبي شنب إلى جانب ثقافته العربية الأصلية ثقافة الغرب، فقد نهل منها منذ الصغر، وتربى في المدارس التي كانت فرنسا تتولى إنشاءها وإعدادها بهدف تخريج أجيال مفرغة من الثقافة العربية والإسلامية، ولكن ابن أبي شنب تفلت منها ونجح في تحصين نفسه بثقافة عربية واسعة. وكان يعرف من اللغات اللاتينية والإنجليزية والأسبانية والألمانية والفارسية والتركية، بالإضافة إلى الفرنسية التي كان يتقنها ويخطب بها وكتب بعض بحوثه بها.

شاهده العلامة (محمد كرد علي) في مؤتمر المستشرقين في(أكسفورد) ببريطانيا وهو يلقي أحد بحوثه، فقال: "شهدته يخطب بالفرنسية في مؤتمر المستشرقين وهو في لباسه الوطني: عمامة صفراء ضخمة، وزنار عريض، وسراويل مسترسلة، ومعطف من صنع بلاده، فأخذت بسحر بيانه واتساعه في بحثه، وظننتني أستمع عالما من أكبر علماء فرنسا وأدبائها في روح عربي وثقافة إسلامية، أو عالما من علماء السلف جمع الله له بلاغة القلم وبلاغة اللسان ووفر له قسطا من العلم والبصيرة، وقد فطر على ذكاء وفضل غرام بالتحصيل، وقيض له أن يجمع بين ثقافتين ينبغ ويفصح في كل لغة بمعانيها".

– **حضوره العالمي والتمسك بقيم الاسلام تجسيدا عمليا** :..سافر محمد بن أبي شنب إلى أوروبا لحضور مؤتمرات المستشرقين وغيرهم، وأتاحت له هذه الزيارات أن يتصل بكبار العلماء في الغرب ومصر والشام، وارتبط بصداقات علمية مع بعض أعلام عصره وراسل كثيرا منهم، مثل الأستاذ أحمد تيمور باشا، وحسن حسني عبد الوهاب باشا، ومحمد كرد علي، ونشر كثيرا من بحوثه في مجلة المجمع العلمي العربي

بدمشق ، وكان المجمع قد اختاره عضوا مراسلا به. وكان العلامة محمد بن أبي شنب ينتدب في جميع الامتحانات العالية في شمال أفريقيا ويترأس لجنة من لجانها التي تتألف من كبار العلماء الفرنسيين، ويروي تلميذه محمد سعيد الزاهري أنه التقى به في لجنة الامتحان في تونس سنة (1341 هـ= 1922م) في الكلية الزيتونية مع العلماء الفرنسيين فوجده عالما جزائريا غير متجنس بالفرنسية، ورئيسا مشرفا على لجنة علمية فرنسية يرأس جلساتها بزيه الجزائري، **وحين حضرت صلاة العصر أوقف الجلسة للاستراحة وقام فصلى**.

– إحياؤه للتراث: جمع ابن أبي شنب بين التأليف بالعربية والفرنسية، ونشر الكتب القديمة التي يراها ضرورية لأبناء وطنه في وثبته ونهضته. أما الكتب التي ألفها بالعربية فهي:

– تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب، ونشره بالجزائر سنة (1336هـ = 1908م).

– تاريخ الرجال الذين رووا صحيح البخاري وبلغوه الجزائر.

–معجم بأسماء ما نشر في المغرب الأقصى ونقدها.

–فهرس خزانة الكتب المخطوطة بالجامع الكبير والجامع الصغير بالجزائر.

ومن الكتب التي ألفها بالفرنسية:

–مجموع أمثال العوام بأرض الجزائر والمغرب، وطبع في باريس في ثلاثة أجزاء.

–الألفاظ التركية والفارسية الباقية في اللهجة الجزائرية.

– ما أخذه دانتي من الأصول الإسلامية في كتابه ديفينا كوميديا، أي في كتابه الكوميديا الإلهية، ويعد هذا الكتاب من أوائل الكتب التي التفتت إلى التأثير الإسلامي في هذا العمل الإبداعي الكبير.

أما الكتب التي قام بنشرها وتحقيقها، فمنها:

- البستان في علماء تلمسان لابن مريم، ونشر بالجزائر سنة 1908م.
- عنوان الدراية في علماء بجاية، ونشر بالجزائر سنة 1910م.
- طبقات علماء أفريقية لأبي ذر الخشني مع ترجمة فرنسية.
- الذخيرة السنية في تاريخ الدول المرينية، ونشر بالجزائر سنة 1921م.

– وفاته: كان محمد بن أبي شنب صورة الأديب والعالم المسلم الداعية الذي عرف كيف يطلع على الأساليب الأوروبية في العمل دون أن يفقد شيئا من صفاته وعاداته(فقدكان متمسكا بلباسه التقليدي الجزائري أينما حل وارتحل خلافا لكثير غيره من المنبهرين بالتقليد الاعمى)، وأورثته سعة علمه زهدا وتواضعا ورغبة في تلبية كل طالب علم قصده في مسألة أو قضية.ولم ينقطع ابن أبي شنب عن الدراسة والتحقيق وإلقاء المحاضرات في قاعات الدرس حتى لقي ربه في (شعبان 1347 هـ=1929م)، ودفن في مقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر.

المحاضرة (9)

الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في الدعوة والإصلاح

نبذة عن حياة ابن باديس:

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن المكي بن محمد كحول بن الحاج علي النوري بن محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن بركات بن عبد الرحمان بن باديس الصنهاجي(كانت صنهاجة قبيلة بربرية تنتسب للطريقة القادرية)(52). ولد بمدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري يوم الأربعاء 11 ربيع الثاني 1307 هـ الموافق لـ 4 ديسمبر 1889 م، وسجل يوم الخميس 12 ربيع الثاني 1307 هـ الموافق لـ 5 ديسمبر 1889 م في سجلات الحالة المدنية التي أصبحت منظمة وفي أرقى صورة بالنسبة لذلك العهد كون الفرنسيين أتموا ضبطها سنة 1886 م. نشأ ابن باديس في بيئة علمية، فقد حفظ القرآن وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ثم تتلمذ على الشيخ أحمد أبو حمدان الونيسي، فكان من أوائل الشيوخ الذين كان لهم أثر طيب في اتجاهه الديني، ولا ينسى ابن باديس أبداً وصية هذا الشيخ له: "اقرأ العلم للعلم لا للوظيفة"، بل أخذ عليه عهداً ألا يقرب الوظائف الحكومية عند فرنسا. وقد عرف دائماً بدفاعه عن مطالب السكان المسلمين في قسنطينة. عبد الحميد ابن باديس ظاهرة عرفها التاريخ وعرفتها الجزائر.....ساعدته في ذلك حالة عائلته الميسورة

...توجه عام 1908م الى الزيتونة بتونس ودرس عند كبار علمائها خاصة الشيخ الطاهر بن عاشور الامام المشهوروالشيخ محمد النخلي،والشيخ البشير الصفر.....،حيث تخرج منها بشهادة التطويع عام 1912م، في العام نفسه حج البيت وهناك التقى بالشيخ (حمدان لونيسي) أستاذ الحديث ،والتقى بالشيخ حسين أحمد الهندي الذي أوصاه بالعودة الى الجزائر للقيام بواجب الاصلاح؛ إذ لا خير في علم بلا عمل!! ،والتقى بالشيخ محمد البشير الابراهيمي،واتفقا معا على تأسيس جمعية العلماء المسلمين للقيام بالدور الاصلاحي المنوط بها ،لبعث النهضة في شعب أُريد له أن يكون نائما الى الابد!!،،وبالفعل أنشأت الجمعية بنادي الترقي يوم الخامس من ماي عام1931م،

52)- فهمي جدعان،أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث،ط2 ،بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،1981،ص557.

وضمت اثنين وسبعين عالما، وكان من أهم أسباب تأسيسها كما يرى البعض هو ذلك الاحتفال الضخم الذي نظّمته فرنسا ودعت إليه العالم بمناسبة مرور قرن على انتصارها على الجزائريين عام 1830 وما صاحب هذه الاحتفالات من شعور الشعب بالمهانة والذلّ.

غير أن فترة العمل الإصلاحي المنظّم تعود إلى عام 1913 حين التقى الشيخ (عبد الحميد بن باديس) بالشيخ (البشير الإبراهيمي) بالمدينة المنورة وتدارسا وضعية الشعب الجزائري وسبل إصلاح أوضاعه البائسة، وكانت الجمعية بعد تأسيسها أمل الشعب الجزائري في تغيير أوضاعه والتخفيف من معاناته(53).،يقول مالك بن نبي-رحمه الله-:"لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس فكانت ساعة اليقظة،وبدأ الشعب الجزائري المخدر يتحرك ،،،ويا لها من يقظة جميلة مباركة!!..."،قد أراد إبن باديس للجمعية أن تكون جمعية هداية وإرشاد لترقية الشعب من وهدة الجهل والسقوط الاخلاقي الى أوج العلم ومكارم الاخلاق في نطاق دينها الذهبي ونبيها الامي"،،،

ضمّت الجمعية ثلة من كبار العلماء منهم: الشيخ البشير الإبراهيمي نائب رئيسها، الشيخ الطيب العقبي، العربي التبسي، الأمين العمودي، مبارك الميلي،... ولكن اسمها ارتبط أكثر بزعيمها الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان يعرف بمرشد الأمة ورائد النهضة والذي تركز نشاطه في قسنطينة.

– **شجاعته في الحق** : حين رُفضت مطالب المؤتمر الاسلامي 1936م التي عرضها على السلطة في باريس، وعاد الوفد خائبا خالي الوفاض، وهوموقف السيد(دلاديه) رئيس وزراء فرنسا آنذاك، مما تؤكد عزم السّلطة على الاستمرار في ممارساتها القهرية ومواجهة كل حركة نضالية بالقمع، إذ لم يكتف برفض (مشروع فيوليت) بل وهدّد باستعمال القوة حيث أجاب أعضاء الوفد:" لا تضطروني إلى استعمال القوة التي تملكها فرنسا ، لأن فرنسا أمة قوية ". وقد أجابه ابن باديس، بكل عزم وشجاعة :" ليس هناك سلطة ولا قوة سوى سلطة وقوة الله ، فقضيتنا عادلة وسنواصل الدفاع عنها ضد كل من يقف في طريقها .....

– **جهوده العلمية والدعوية**: عبد الحميد ابن بايس هو رائد النهضة الجزائرية ، وهب حياته في خدمة الجزائر وكرس حياته في العلم والمعرفة وباتصالاته بكبار العلماء وأهم نشاطاته:

- تعليم الصغار نهارا ووعظ الكبار ليلا.، ممارسة الدعوة بنشر الوعي الديني.
- إصدار صحف ومجلات لتدافع عن حقوق الجزائريين .
- رئاسة جمعية العلماء المسلمين وذلك في سنة 1931

– في جامع الزيتونة

في عام 1908 م قرر ابن باديس –وهو الشاب المتعطش للعلم– أن يبدأ رحلته العلمية الأولى إلى تونس، وفي رحاب جامع الزيتونة الذي كان مقراً كبيراً للعلم والعلماء يُشبه في ذلك الأزهر في مصر. وفي الزيتونة تفتحت آفاقه، وعبّ من العلم عبًّا، والتقى بالعلماء الذين

---

(2)– أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1945/1930، م،س،ص83 ،84

كان لهم تأثير كبير في شخصيته وتوجهاته، مثل الشيخ محمد النخلي الذي غرس في عقل ابن باديس غرسة الإصلاح وعدم تقليد الشيوخ، وأبان له عن المنهج الصحيح في فهم القرآن. كما أثار فيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حب العربية وتذوّق جمالها ، ويرجع الفضل للشيخ البشير صفر في الاهتمام بالتاريخ ومشكلات المسلمين المعاصرة وكيفية التخلص من الاستعمار الغربي وآثاره....- تخرج الشيخ من الزيتونة عام 1912 م وبقي عاماً آخر للتدريس حسب ما تقتضيه تقاليد هذه الجامعة، وعندما رجع إلى الجزائر شرع على الفور بإلقاء دروس في الجامع الكبير في قسنطينة، ولكن خصوم الإصلاح تحركوا لمنعه، فقرر القيام برحلة ثانية لزيارة أقطار المشرق العربي.

- في المدينة النبوية:

بعد أداء فريضة الحج مكث الشيخ ابن باديس في المدينة المنورة ثلاثة أشهر، ألقى خلالها دروساً في المسجد النبوي، والتقى بشيخه السابق أبو حمدان الونيسي وتعرف على رفيق دربه ونضاله فيما بعد الشيخ البشير الإبراهيمي. وكان هذا التعارف من أنعم اللقاءات وأبركها، فقد تحادثا طويلاً عن طرق الإصلاح في الجزائر واتفقا على خطة واضحة في ذلك. وفي المدينة اقترح عليه شيخه الونيسي الإقامة والهجرة الدائمة، ولكن الشيخ حسين أحمد الهندي المقيم في المدينة أشار عليه بالرجوع للجزائر لحاجتها إليه. زار ابن باديس بعد مغادرته الحجاز بلاد الشام ومصر واجتمع برجال العلم والأدب وأعلام الدعوة السلفية، وزار الأزهر واتصل بالشيخ بخيت المطيعي حاملاً له رسالة من أستاذه الشيخ حمدان لونيسي.

- العودة إلى الجزائر: اقتنع بنصيحة الشيخ الهندي مؤثرا مصلحة بلاده وشعبه على مصلحته الشخصية فعاد للجزائر، ووصلها عام 1913 م واستقر في مدينة قسنطينة، وشرع في العمل التربوي الذي صمم عليه، فبدأ بدروس للصغار ثم للكبار، وكان المسجد هو المركز الرئيسي لنشاطه، ثم تبلورت لديه فكرة تأسيس جمعية العلماء المسلمين، واهتماماته كثيرة لا يكتفي أو يقنع بوجهة واحدة، فاتجه إلى الصحافة، وأصدر جريدة المنتقد عام 1925 م وأغلقت بعد العدد الثامن عشر؛ فأصدر جريدة الشهاب الأسبوعية، التي بث فيها آراءه في الإصلاح، واستمرت كجريدة حتى عام 1929 م ثم تحولت إلى مجلة شهرية علمية، وكان شعارها: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها"، وتوقفت المجلة في شهر شعبان 1328 هـ (أيلول عام 1939 م) بسبب اندلا ع الحرب العالمية الثانية، وحتى لا يكتب فيها أي شيء تريده الإدارة الفرنسية تأييداً لها، وفي سنة 1936 م دعا إلى مؤتمر إسلامي يضم التنظيمات السياسية كافة من أجل دراسة قضية الجزائر، وقد وجه دعوته من خلال جريدة لاديفانس التي تصدر بالفرنسية، واستجابت أكثر التنظيمات السياسية لدعوته وكذلك بعض الشخصيات المستقلة، وأسفر المؤتمر عن المطالبة ببعض الحقوق للجزائر، وتشكيل وفد سافر إلى فرنسا لعرض هذه المطالب وكان من ضمن هذا الوفد ابن باديس والإبراهيمي والطيب العقبي ممثلين لجمعية العلماء، ولكن فرنسا لم تستجب لأي مطلب وفشلت مهمة الوفد.

- العوامل المؤثرة في شخصية ابن باديس:

لا شك أن البيئة الأولى لها أثر كبير في تكوين شخصية الإنسان، وفي بلد كالجزائر عندما يتفتح ذهن المسلم على معاناته من فرنسا، وعن معاناته من الجهل والاستسلام للبدع-فسيكون هذا من أقوى البواعث لأصحاب الهمم وذوي الإحساس المرهف على القلق الذي لا يهدأ

حتى يحقق لدينه ولأمته ما يعتبره واجباً عليه، وكان ابن باديس من هذا النوع. وإن بروز شخصية كابن باديس من بيئة ثرية ذات وجاهة لَهو دليل على إحساسه الكبير تجاه الظلم والظالمين، وكان بإمكانه أن يكون موظفاً كبيراً ويعيش هادئاً مرتاح البال ولكنه اختار طريق المصلحين.

وتأتي البيئة العلمية التي صقلت شخصيته وهذبت مناحيه والفضل الأكبر يعود إلى الفترة الزيتونية ورحلته الثانية إلى الحجاز والشام حيث تعرف على المفكرين والعلماء الذين تأثروا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وما دعا إليه من نقاء العقيدة وصفائها. وكان لمجلة المنار التي يصدرها الشيخ رشيد رضا أثر قوي في النظر لمشكلات المسلمين المعاصرة والحلول المطروحة.ومما شجع ابن باديس وأمضى عزيمته وجود هذه العصبة المؤمنة حوله–وقد وصفهم هو بالأسود الكبار–من العلماء والدعاة أمثال الإبراهيمي والتبسي والعقبي والميلي. وقد عملوا معه في انسجام قلّ أن يوجد مثله في الهيئات الأخرى.

– آثار ابن باديس:

شخصية ابن باديس شخصية غنية ثرية و من الصعوبة في حيز ضيق من الكتابة الإلمام بكل أبعادها و آثارها ؛ فهو مجدد و مصلح يدعو إلى نهضة المسلمين و يعلم كيف تكون النهضة. يقول: "إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله و رسوله إذا كانت لهم قوّة ، و إذا كانت لهم جماعة منظّمة تفكّر و تدبّر و تتشاور و تتآثر ، و تنهض لجلب المصلحة و لدفع المضرّة ، متساندة في العمل عن فكر و عزيمة"،، وهو عالم مفسّر ، فسّر القرآن الكريم خلال خمس و عشرين سنة في دروسه اليومية كما شرح موطأ مالك خلال هذه الفترة ، و هو سياسي يكتب في المجلات و الجرائد التي أصدرها عن واقع المسلمين و خاصة في الجزائر و يهاجم فرنسا و أساليبها الاستعمارية و يشرح أصول السياسة الإسلامية ، و قبل كل هذا هو المربي الذي أخذ على عاتقه تربية الأجيال في المدارس والمساجد، فأنشأ المدارس واهتم بها، بل كانت من أهم أعماله ، و هو الذي يتولى تسيير شؤون جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، و يسهر على إدارة مجلة الشهاب ويتفقد القاعدة الشعبية باتصالاته المستمرة. إن آثار ابن باديس آثار عملية قبل أن تكون نظرية في كتاب أو مؤلَّف ، و الأجيال التي رباها كانت **وقود معركة تحرير الجزائر** ، و قليل من المصلحين في العصر الحديث من أتيحت لهم فرص التطبيق العملي لمبادئهم كما أتيحت لابن باديس ؛ فرشيد رضا كان يحلم بمدرسة للدعاة ، و لكن حلمه لم يتحقق ، و نظرية ابن باديس في التربية :أن تبدأ من الفرد ، (إصلاح الفرد هو الأساس) . و طريقته في التربية هي توعية هذا النشء بالفكرة الصحيحة كما ذكر الشّيخ الإبراهيمي عن اتفاقهما في المدينة: "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها سنة 1913 في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم و إنما نربيه على فكرة صحيحة" . ينتقد ابن باديس مناهج التعليم التي كانت سائدة حين تلقيه العلم و التي كانت تهتم بالفروع و الألفاظ – فيقول: "و اقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية، مجردة بلا نظر ، جافة بلا حكمة ، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة ، تفني الأعمار قبل الوصول إليها". أما إنتاجه العلمي فهو ما جمع بعد من مقالاته في "الشهاب" و غيرها و من دروسه في التّفسير و الحديث.

الهدف التربوي عند ابن باديس:

قبل الدخول في تفاصيل الهدف التربوي عند ابن باديس ومعرفة الأولويات التي راعاها في ذلك، لا بد من التذكير بأن الأمة الجزائرية في تلك الفترة كانت مهددة بخطر افتقاد الهوية الذاتية، بضياع شخصيتها وذوبانها في شخصية الأمة الفرنسية المسيحية، فالاستعمار بذل

قصارى جهده لتفريغ هذا الشعب من مضمونه الإسلامي، وجعله مسخًا تابعًا له.

في ظل تلك الظروف القائمة، خاض ابن باديس معركته التربوية الرائدة، التي كان من أهدافها التصدي لتلك الحملة الشرسة. وضع ابن باديس برامجه التربوية لإعداد المتعلمين لحياة تلائم البيئة التي يعيشون فيها، أخذًا في الاعتبار ما ينبغي أن يحدث من تغيير في المجتمع، لاسترجاع الحرية والكرامة المسلوبتين.

بيّن ابن باديس الهدف التربوي الذي يسعى لتحقيقه بأنه: (الرجوع (بالشعب) إلى عقائد الإسلام المبنيّة على العلم، وفضائله المبنية على القوة والرحمة، وأحكامه المبنية على العدل والإحسان، ونظمه المبنية على التعاون بين الأفراد والجماعات، والتآلف والتعامل والتعاون، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله، ومن اتقى الله فهو أنفع الخلق لعباد الله).. فالتربية عند ابن باديس تهدف إلى:

- تحقيق العبودية الخالصة لله، في الحياة الفردية والجماعية، وذلك بتعلم الإسلام من مصادره الأصيلة.

- تكوين المواطن المؤمن المتميز عن المستعمر المغتصب في جميع جوانب حياته، وبالتالي إحداث التميز الاجتماعي للأمة الجزائرية، التي أرادت فرنسا احتواءها وابتلاعها.

- ربط الأجيال بالتراث والحضارة العربية الإسلامية، وهو ما يسميه بعض العلماء بوظيفة: (نقل التراث) أو (إحياء التراث).. ويؤكد ابن باديس أن هدفه التربوي هو:

- ترقية المجتمع الجزائري في (جميع نواحي الحياة إلى أقصى ما تترقى إليه الأمم، ليكونوا محترمين من أنفسهم ومن غيرهم، يفيدون ويستفيدون، ويعرفون كيف يسوسون وكيف يُسَاسون، فتربح بهم الإنسانية عضوًا مِن خيرِ مَن عَرَفَتْ من أعضائها).

فإذا ما تحقق للشعب الاستعداد الداخلي للتغيير، أو بعبارة أخرى: التخلص من القابلية للاستعمار، مصداقًا لقول الله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)(الرعد:11)، أمكنه الرقي في جميع جوانب الحياة، وذلك بتزويد المتعلمين بالقدر المناسب من المعلومات والخبرات المختلفة، فيساهموا في بناء صرح الأمة وخدمتها والدفاع عنها. ويمكن تلخيص الهدف التربوي عند ابن باديس بأنه:

1- إحداث التغيير الداخلي في الفرد الجزائري، بإرجاعه إلى دينه وتعلّمه من مصادره الأصيلة، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم، خاليًا من البدع والشوائب، ليحافظ على شخصيته العربية والإسلامية.

2- تأهيله لتسلّق درجات الرقي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، والوصول إلى مصاف الشعوب الراقية، فيسعد في الدنيا والآخرة.54

- مصادر التربية عند ابن باديس

قبل تحديد المصادر التي اعتمد عليها الشيخ عبد الحميد بن باديس في عمليته التربوية، نلقي أولاً نظرة سريعة على فلسفته التربوية.

إذا كانت العملية التربوية تهتم بتزويد الفرد بمجموعة من المعارف والخبرات، التي تساعده على التكيف مع تغيرات البيئة المادية والاجتماعية، أو بعبارة أخرى تزويد الفرد بخلاصة التراث والحضارة السائدة في المجتمع في وقت وجيز، فإن فلسفة التربية تقدم له المقاييس والمعايير التي يختار على أساسها تلك المعارف والخبرات.

54)- مصطفى محمد حمداتو، عبد الحميد إبن باديس وجهوده التربوية، قطر:سلسلة كتاب الأمة(57)، ، ص

أما فلسفة التربية الإسلامية، فهي مستوحاة من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم، اللذين رسما للمسلم منهج سلوكه في الدنيا، وعلاقته بما حوله في عالميْ الغيب والشهادة.

والتربية عند ابن باديس هي التربية الإسلامية، التي تُعتبر الطريق السليم لإيجاد المجتمع الإسلامي، وإنقاذ الشعب من وهدة الذوبان في الحضارة الغربية المادية، وعليه فإن المصادر التي اعتمد عليها الشيخ عبد الحميد بن باديس في مسيرته التربوية، هي نفسها مصادر التربية الإسلامية: كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم، وذلك مصداقاً لقوله صلى الله عليه و سلم: (تركتُ فيكم شيئين، ما إن تمسكتم بهما، لا تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسنتي).

إن اعتبار كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم مصدران للتربية عند ابن باديس، له ما يدعّمه في تاريخ هذا الرجل، فقد قضى شطر عمره شارحًا لكتاب الله تعالى في حلقات استمرت ربع قرن، واثقًا بأن هذا الكتاب الذي سعد به المسلمون الأوائل، جدير بأن يوقظ هذا الشعب ويسعده إذا حسنت النوايا وحشدت الهمم.

كان –رحمه الله– يفتتح مجلة (الشهاب) بنماذج من تفسيره للقرآن الكريم، تحت عنوان: (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير). ويعلل ابن باديس تركيزه على القرآن الكريم في تربية الأجيال قائلاً: (فإننا نربي –والحمد لله– تلامذتنا على القرآن، ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم وفي كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال الربانيين تعلّق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودهم).

وأما المصدر الثاني الذي استقى منه الإمام ابن باديس منهجه التربوي فهو: الصحيح من سنة النبي صلى الله عليه و سلم.

فقد اعتنى بشرح موطأ إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله، وخصص جزءًا من (الشهاب) لنشر مقتطفات من ذلك الشرح، تحت عنوان: (مجالس التذكير من حديث البشير النذير).

هذه باختصار أهم المصادر التي اعتمد عليها الشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله في مسيرته التربوية.

- **أساليب التربية عند ابن باديس:**

الأساليب جمع أسلوب، وهو الطريق، ويطلق على الفن من القول أو العمل.. وفي التربية، تعني الطرق التي ينتهجها المربون مع متعلميهم.

وقد استخدم الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، أساليب ووسائل متنوعة لإنجاح جهوده التربوية، استوحاها من مصادر الإسلام الأصيلة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم، نذكر أهمها في ما يلي:

1 . التربية بالقدوة:

القدوة هي الأسوة، يُقال فلان قِدْوة يُقتدى به، وقد يضم فيقال: لي بك (قُدوة) و(قدة)، والتلميذ في المدرسة يحتاج إلى نموذج عملي وقدوة يراها في كل مربّ من مربيه، ليوقن ويتحقق بأن ما يُطلب منه من السلوك والأخلاق هو أمر واقعي يمكن ممارسته، فهو يأخذ بالتقليد والمحاكاة أكثر مما يأخذ بالنصح والإرشاد، وعليه فإن إنجاح العملية التربوية يتوقف إلى حد كبير على وجود المربي، الذي يحقق بسلوكه وممارساته التربوية، المثال الصادق لأهداف المنهج التربوي، المراد إقامته وتحقيقه. فقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه و سلم أن يقتدي بهَدْي مَن سبقه من الرسل، فقال: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)(الأنعام:90). وأمر الله المؤمنين بأن يقتدوا برسوله صلى الله عليه و سلم، فقال: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر)(الأحزاب:21). وخاطب الله

عز وجل رسولهَ والمؤمنين جميعًا بقوله: (لقد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه) (الممتحنة:4). هكذا ارتبط التعليم في الإسلام من البداية بالقدوة الحسنة، فكان الصحابة –رضوان الله عليهم– يقتدون بسلوك الرسول صلى الله عليه و سلم، وكان هو يَطلب منهم محاكاته والأخذ عنه قائلاً: (صلوا كما رأيتموني أصلي) (رواه البخاري من حديث مالك بن الحُوَيْرِث).. (يا أيها الناس خذوا مناسككم) (رواه مسلم والنسائي واللفظ له من حديث جابر). وقد أسهبنا في ذكر الأمثلة العملية للتربية بالقدوة عند ابن باديس، عند كلامنا عن سماته الشخصية، بما يغني عن إعادتها في هذا المبحث.

2 . **التربية بالوعظ والتذكير**: حقيقة التذكير عند ابن باديس أن تقول لغيرك قولاً يذكر به ما كان جاهلاً أو ناسيًا أو عنه غافلاً، وقد يقوم الفعل والسمت والهدى مقام القول، فيسمى تذكيرًا مجازًا وتوسعًا. وحاجة العباد إلى هذا التذكير، أعظم ما يحتاجون إليه وأشرفه. وكان النبي صلى الله عليه و سلم على سنّة إخوانه من الأنبياء والمرسلين –عليهم الصلاة والسلام– في القيام بتذكير العباد، متمثلاً أمر ربّه تعالى له: (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر)(الغاشية:21).

وقوله تعالى: (فذكر إن نفعت الذكرى)(الأعلى:9). وقوله تعالى: (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)(ق:45).

وأما الوعظ والموعظة، فهو الكلام المليّن للقلب بما فيه من ترغيب وترهيب، فيحمل السامع –إذا اتعظ وقبل الوعظ وأثّر فيه– على فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه.

والموعظة الحسنة عند ابن باديس، هي التي ترقّق القلوب، لتحملها على الامتثال لما فيه خيري الدنيا والآخرة، وإنما تكون كذلك إذا حسن لفظها بوضوح دلالته على معناها، وحسن معناها بعظيم وقعه في النفوس، فَعَذُبَتْ في الأسماع، واستقرت في القلوب، وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية، فأثارت الرغبة والرهبة، وبعثت الرجاء والخوف بلا تقنيط من رحمة الله، ولا تأمين من مكره، وانبعثت عن إيمان ويقين، وتأدت بحماس وتأثر، فتلقتها النفس من النفس، وتلقاها القلب من القلب. وعلى الرغم من أن ابن باديس كان خطيبًا واعظًا مفوهًا بليغ الكلام، إلا أنه اهتم بالتكوين الأساس والبناء التربوي أكثر من الوعظ، ذلك لأن الوعظ في حقيقته يجدي في مجتمع صالح قد تحدث فيه أخطاء، فيقوم الوعّاظ عند ذلك بتنبيه الخاطئين بإيقاظ وتحريك تقوى الله في نفوسهم.لكن الأمر يختلف بالنسبة إلى حالة المجتمع الجزائري في أيام ابن باديس، حيث لم يبق في نفوس عامة الناس إلا إسلام طرقيّ قبوريّ، من تبعه فَقَدَ كلّ حيوية وفاعلية، ومن أعرض عنه ارتمى في أحضان الثقافة الفرنسية اللادينية.

لذلك فإن ابن باديس لم يركّز كثيرًا على الوعظ وإن لم يهمله، بل وجّه جُلّ اهتمامه للتربية والتعليم، وكان يعيب على خطباء عصره الذين لم يدركوا حقيقة الوعظ ولا التذكير، وكانت أغلب خطبهم لا تناسب الواقع ولا تتماشى مع النوازل التي ألمّت بالأمة، فأثناء شرحه لقول الله تبارك وتعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة)(الفرقان:32)، وتطرّقه إلى محاسن هذه الشريعة، وأنها نزلت بالتدريج المناسب حسب الوقائع، قال: (انظر إلى هذه الحكمة في هذا التنزيل، كيف نزلت آياته على حسب الوقائع ؟ أليس في هذا قدوة صالحة لأئمة الجُمع وخطبائها في توخّيهم بخطبهم الوقائع النازلة، وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال ؟ بلى والله.. ولقد كانت الخطب النبوية والخطب السلفية كلها على هذا المنوال، تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال، وأما هذه الخطب المحفوظة المتلوّة على الأحقاب والأجيال، فما هي إلا مظهر من مظاهر قصورنا وجمودنا، فإلى الله المشتكى، وبه المستعان).

3 . **التشجيع على التحصيل وتنمية القدرات الذاتية للطالب**: لا شك أن الدروس والبرامج المدرسية إنما تُحصّل فيها قواعد بعض

العلوم، وتبقى فنون كثيرة من فنون العلم يحصّلها الطالب ويصل إليها عن طريق البحث والمطالعة بنفسه أو مع زملائه. (فالتحصيل الدرسي يؤدي إلى فهم قواعد العلم وتطبيقها حتى تحصل ملكة استعمالها، وأما توسيع دائرة الفهم والاطلاع فإنما يتوصل إليها الطالب بنفسه، بمطالعته للكتب). ويحث ابن باديس الطلبة ومعلميهم على عدم الاكتفاء بالبرامج المدرسية وحدها، قائلاً: (فعلى الطلبة والمتولين أمر الطلبة، أن يسيروا على خطة التحصيل الدرسي والتحصيل النفسي، ليقتصدوا في الوقت ويتسعوا في العلم، ويوسّعوا نطاق التفكير).

ركّز ابن باديس في خطته التربوية على تنمية القدرات العقلية للطلبة، وحثهم على إعمال عقولهم في ما يدرسون ويعالجون من مسائل، ويفكّروا تفكيرًا صحيحًا مستقلاً عن تفكير غيرهم مع الاستئناس به، موضحًا ذلك بقوله: (إذا كان التفكير لازمًا للإنسان في جميع شؤونه وكل ما يتصل به إدراكه، فهو لطلاب العلم ألزم من كل إنسان، فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل وفيما ينظر من الأدلة، تفكيرًا صحيحًا مستقلاً عن تفكير غيره، وإنما يعرف تفكير غيره ليستعين به، ثم لابد له من استعمالِهِ فِكْرَهُ هو بنفسه).

4 . **التربية باستغلال الطاقة وملء الفراغ بما ينفع**: إن استغلال طاقة الشباب، وتوجيهها وجهتها الصحيحة، بطريقة تستهوي ميولهم ورغباتهم وتبعث فيهم المرح والحيوية، له ما يدعمه في سنة المصطفى صلى الله عليه و سلم، فقد أرشد صلى الله عليه و سلم أصحابه إلى بعض تلك الطرق فقال: (علِّمُوا أبناءكم السباحةَ والرمايةَ وركوبَ الخيل).. وكان صلى الله عليه و سلم يسابق بين خيل الصحابة، ليعرفوا أن ذلك ليس من العبث، بل من الرياضة المحمودة الموصلة إلى تحصيل المقاصد في الغزو، والانتفاع بها عند الحاجة. وأكثر من ذلك، فقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها، أنها رأت رسول الله صلى الله عليه و سلم يومًا على باب حجرتها والحبشة يلعبون في المسجد، ورسول الله صلى الله عليه و سلم يسترها بردائه تنظر إلى لعبهم. والحقيقة أن الطاقة المتولدة لدى الإنسان عمومًا والشباب خصوصًا، ينبغي إطلاقها وتوجيهها نحو عمل إيجابي بنّاء، وأن كبحها وتخزينها من غير مبرّر، مخل بالتوازن الجسمي والنفسي للإنسان. وقد اعتنت المدرسة الحديثة بهذا الجانب، واستحدثت ما يُسمى بالنشاط المدرسي، الذي أصبح جزءًا من المناهج المعمول بها في أغلب المؤسسات التعليمية.

وقد أدرك الإمام ابن باديس رحمه الله، الأهمية البالغة لعملية توجيه طاقة الشباب المخزنة، وتفريغها في ما يعود عليهم بالمصلحة لحمايتهم من الانحراف والشذوذ، فكان ينهى متعلّميه عن تبديد أوقاتهم وجهودهم فيما لا فائدة فيه، ويرشدهم إلى الترويح عن أنفسهم بما يطيب لهم من المباحات والمستحبات، كالسباحة، والخروج إلى الطبيعة، والاستمتاع في أحضانها، والتفكر في مبدعها. كان ابن باديس مربيًا محنّكًا، له حسّ مُرْهف، وعبقرية متدفقة في فهم نفوس متعلّميه، ومعرفة ميولها وحاجتها إلى ما يبعث المرح والحيوية والتفاؤل.. يقول عن نفسه: (لم تفارقْني مهنة المعلم، فكنتُ أجدني عن غير قصد أقرر نكتة في بيت من الشعر، أو عِبرة في حادث من التاريخ)، مخافة السآمة على سامعيه.

والحقيقة أن ابن باديس رحمه الله، لم يقتصر على ما ذكرنا من الأساليب، فقد كان يربّي بالقصة لما لها من تأثير ساحر على القلوب، ويربّي بالعادة ويستخدمها وسيلة من وسائل التربية، بزرع الخصال الحميدة في نفوس الناشئة، وجعلها فيهم متأصلة يزاولونها بغير جهد ولا عياء.

وقد كان لمدرسة ابن باديس التربوية من الخصائص ما جعلها محل اهتمام الدارسين، ذلك ما سنتطرق إليه في المطلب القادم إن شاء الله.

خصائص التربية عند ابن باديس:

إذا جاز لنا تلخيص خصائص التربية عند ابن باديس، فإنها باختصار تربية شاملة متكاملة. وإذا عرفنا أن التربية عند ابن باديس مستوحاة

من مصادر الإسلام الأصيلة، أدركنا أنها شاملة لكل جوانب الحياة في الدنيا والآخرة. إن التربية عند ابن باديس لا تقتصر على جانب واحد من جوانب شخصية المتعلم، فهي تربية للجسم والروح والعقل معًا.

يقول رحمه الله: (الإنسان مأمور بالمحافظة على عقله وخلقه وبدنه، ودفع المضارّ عنها، فيثقّف عقله بالعلم، ويقوّم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوّي بدنه بتنظيم الغذاء، وتوقّي الأذى، والتريّض على العمل.

والتربية عند ابن باديس لا تقتصر على مكان دون آخر، فهي في المدرسة والمسجد والنادي، وحتى في الشارع والسوق، وفي ما يلي نذكر بعض تلك الخصائص:

1 . **تربية روحية:** يرى ابن باديس أن المخاطَب من الإنسان هو نفسه، وأن ما يظهره الجسد من تصرفات لا يعدو أن يكون انعكاسًا لما تضمره تلك النفس، التي لا صلاح للإنسان إلا بصلاحها: (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها)(الشمس:9-10).. لذلك ركّز ابن باديس على تطهير الروح وتنزيهها عن مساوئ الأخلاق، وتحليتها بمكارمها، لتسمو بصاحبها نحو الكمال الإنساني، ذلك لأن الإنسان (مهيأ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي وهو روحه، ومعرّض للسقوط والنقصان بما فيه من اختلاط عناصر جزئه الأرضي الظلماني وهو جسده، ولا يخلص من كدرات جثمانه، ولا ينجو من أسباب نقصانه، إلا بعبادة ربه، التي بها صفاء عقله وزكاء نفسه، وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه).

2 . **تربية جسمية:** لم يفصل ابن باديس بين هذا الجانب وغيره من جوانب التربية، فقد أولى اهتمامًا بالغًا للتربية الجسدية، التي لا تقل أهمية عن التربية الروحية، ذلك أن كثيرًا من الأعمال تتوقّف على سلامة الأبدان وقوتها، فضعيف الجسم يقل أداؤه العقلي والاجتماعي، وبالتالي لا يكون عنصرًا فعّالاً في مجتمعه.

فالرياضة البدنية والوجبات الغذائية، لها دور كبير في الحفاظ على سلامة الأبدان وصحّتها، يقول ابن باديس عند تفسيره لقول الله تعالى: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إني بما تعملون عليم)(المؤمنون:51):

(تتوقّف الأعمال على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات، ولهذا قدّم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل، فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلها الله، كما حرّم غلاة المتصوفة اللحم.. وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها، كما يفعل متصوفة الهنادك ومن قلّدهم من المنتسبين إلى الإسلام.. والميزان العدل في ذلك، هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه و سلم وأصحابه رضي الله عنهم.

وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح، تنبيه على أنه هو الذي يثمرها، لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن، فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن، فتفسد الأعمال).

3 . **تربية سلوكية عملية:** كما ذكرنا عند حديثنا عن القدوة في التربية، فإن ابن باديس لم يكتف في مسيرته التربوية بالأقوال دون الأفعال، لأن من تمام كمال المسلم أن تتطابق أقواله مع أفعاله.

لذا حرص أن يكون من تلاميذه ومريديه رجالاً عمليين، يطبّقون ما يتعلمونه، فيعبدون الله على علم وبصيرة، فكان يحثهم على أن يمثّلوا الأخلاق الإسلامية الفاضلة بين أقوامهم –إذا رجعوا إليهم– فيحبّبوا الناس في العلم، ويكونوا لهم قدوة فيه وفي العمل به، وكان رحمه الله يوصيهم (بنشر ما تعلّموه برفق ولطف، وأن يكونوا مظاهر محبة ورحمة على ما قد يلقونه من جفوة من بعض الناس).

4 . **تربية عقلية**: كما ذكرنا سابقًا، فإن التربية عند ابن باديس اهتمت بجميع جوانب المتعلم، فكما اهتمت بالروح والجسد، فإنها أولت العقل عناية خاصة، بالحفاظ عليه وتثقيفه بكل ما هو نافع من العلوم الدينية والدنيوية، يقول ابن باديس: (حافظ على عقلك، فهو النور الإلهي الذي مُنِحْتَهُ، لتهتدي به إلى طريق السعادة في حياتك).

وقد تميزت المدرسة الباديسية بتنمية القدرات العقلية للطلبة، وحثهم على إعمال عقولهم فيما يدرسون، وأن يفكروا تفكيرًا صحيحًا مستقلاً عن تفكير غيرهم مع الاستفادة من تفكير غيرهم، يقول ابن باديس: (التفكير التفكير يا طلبة العلم، فإن القراءة بلا تفكير لا توصل إلى شيء من العلم، وإنما تربط صاحبها في صخرة الجمود والتقليد، وخير منهما الجاهل البسيط). وكان رحمه الله، يحثّهم على تكريم العقول، بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات، وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات.

والخلاصة: أن التربية عند ابن باديس، لم تقتصر على جانب واحد من جوانب شخصية المتعلم. فقد اعتنت بصحة الأبدان وسلامتها، وصفاء الأروح وتزكيتها، وتنشيط العقول وصيانتها.

إصلاح مناهج التعليم عند ابن باديس :

إن ابن باديس عند وضعه لمناهج التعليم، لم يكن مذهبه مثاليًا مبنيًا على تصورات نظرية، بل كان واقعيًا، أملته متطلبات العصر، وأولويات المجتمع ومعتقداته. وعناية ابن باديس بموضوع التربية، ليست عناية الباحث المنظّر، الذي لا شأن له بالتطبيق العملي، بل كان يمارس ذلك كل يوم في حلقات الدروس في الكتاتيب والمدارس، وحتى في النوادي والأسواق.

وقبل أن نتطرق إلى رأي ابن باديس في إصلاح المناهج والبرامج الدراسية، نوضح أولاً مفهوم الإصلاح عنده، والمدارس التي أثّرت في منهجه التربوي.

يعرّف ابن باديس الإصلاح فيقول: (هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله، بإزالة ما طرأ عليه من فساد).. ويقول: (صلاح الشيء: هو كونه على حالة اعتداله في ذاته وصفاته، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال). وقد لاحظ ابن باديس أن المناهج والبرامج المتبعة في زمانه، ليست في حالة اعتدال، سواء في صورتها أو مادتها، لإهمالها كثيرًا من المبادئ الخالدة التي جاء بها الإسلام، فهو يرى أنه (لن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه، في مادته وصورته، فيما كان يعلّم صلى الله عليه و سلم، وفي صورة تعليمه).

ويرى ضرورة إعداد المناهج المناسبة لتنشئة أجيال المستقبل وتربيتها التربية الصالحة، موضحًا ذلك بقوله: (إن أبناءنا هم رجال المستقبل، وإنهالهم قضاء على الأمة إذ يسوسها أمثالهم، ويحكم في مصائرها أشباههم... ونحن ينبغي هنا أن نربّي أبناءنا كما علّمنا الإسلام، فإن قصّرنا فلا نلومنّ إلا أنفسنا، ولنكن واثقين أننا نبني على الماء ما لم نعدّ الأبناء بعدّة الخُلُق الفاضل، والأدب الديني الصحيح).

ويحرّض ابن باديس رجال التربية في عصره على ضرورة إعادة النظر في البرامج التربوية، فيتساءل مستنكرًا: (فهل نعدّ منهجًا ينبت به أبناؤنا نباتًا حسنًا فيكون رجاؤنا عظيمًا، أم نستمر على ما نحن عليه فيضيع الرجاء؟ ذلك ما نُسأل عنه يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم).

ويوضح في هذا السياق أهمية إصلاح تلك البرامج، مؤكدًا على الصبغة المتميزة التي ينبغي أن تكون عليها، فيقول: (فالتعليم هو الذي يطبع المتعلّم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره... ونعني بالتعليم: التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناسُ دينهم، ويقتدون به فيه).

وكان أهل المغرب يبعثون بأبنائهم إلى الكتاتيب منذ الصغر، ولم تكن هناك سِنٌّ معينة يبدأ عندها الطفل في تلقي العلم، وإنما كان الأمر متروكًا للآباء، فمتى وجدوا أن الطفل بدأ في التمييز والإدراك أرسلوه إلى الكُتَّاب.

وأما طريقتهم في تعليم الصبيان في الكتاتيب، فيصفها العلامة ابن خلدون بقوله: (فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شِعْر، ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه).

وظلت تلك الطريقة متبعة عند أهل المغرب إلى أن سقطت آخر معاقل المسلمين في الأندلس، وهاجر الكثير منهم إلى شمال أفريقيا، فتأثر المغاربة بطريقة أهل الأندلس التي يصفها ابن خلدون بقوله: (وأما أهل الأندلس فمذهبم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسّه ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسّل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجويد الخط والكتاب. هذه هي طرق أهل المغرب وأهل الأندلس، فماذا كانت طريقة ابن باديس في ذلك؟

أما ابن باديس فلم يحدّد سنًا معلومة لالتحاق الطلبة بالمدارس، فكان من بين متعلميه من تناهز أعمارهم الثلاثين سنة. وقد تأثر إلى حد كبير بالطريقة الأندلسية في التدريس وإصلاح التعليم، يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، واصفًا الطريقة التي ارتضاها وابن باديس لتربية النشء: (وكانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا في المدينة، في تربية النشء، هي ألا نتوسّع له في العلم، وإنما نربّيه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا). ومن قبل قال ابن خلدون: (اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين يكون مفيدًا لو تمّ ذلك بالتدريج شيئًا فشيئًا، قليلاً قليلاً، فيلقى على المتعلم مسائل من كل باب من الفن، هي أصول ذلك الباب).

وكان ابن باديس رحمه الله يحرص على الكيف أكثر من حرصه على الكم، يرى التركيز على الفهم وإعمال الذهن وتشغيل قوى المخيلة، أكثر من شحن الذاكرة.(55)

الدعوة لتعليم المرأة:

قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحج) (التحريم:6). قال الضحاك في ذلك: (حق المسلم أن يُعلم أهله من قرابته وإيمائه وعبيده، ما فرضَ الله عليهم، وما نهاهم الله عنه)(1). وقال الله تعالى مخبرًا عن إسماعيل عليه السلام: (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً)(مريم:55).

فالأسرة هي اللَّبِنَةُ الأولى في بناء المجتمع المسلم، ومحضن ذلك هو البيت وما يُقدّم فيه من تربية، وعماد ذلك كله هو المرأة المسلمة. (فالبيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخُلُق.. والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا، معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت، بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن). لذلك أولى ابن باديس تعليم المرأة المسلمة اهتمامًا كبيرًا، مدركًا الخطر المحدق بالأمة إذا تركت المرأة بغير تعليم. كان أهالي الجزائر في زمن الاستعمار يمنعون بناتهم من الذهاب إلى المدارس الحكومية، لأن القائمين عليها ليسوا مسلمين.. واستمر الأمر كذلك إلى أن منعوهن من التعليم في الكتاتيب

55)- نفس المرجع.

الحرة، غَيْرَةً على الأعراض وحفاظًا على الدين في نظرهم.

بقيت المرأة بعيدة عن التعليم إلى أن ظهرت بوادر الحركة الإصلاحية، فنادى الشيخ ابن باديس بضرورة تعليم البنات، وتوفير المكان المناسب لهن دون الاختلاط بالذكور، معطيًا بذلك روحًا جديدًا للتعليم في الجزائر لم يكن معهودًا فيها من قبل، ذلك لأن المجتمع لا ينهض إلا بالجنسين الرجل والمرأة، مثل الطائر لا يطير إلا بجناحيه.

إنّ النساء شقائق الرجال في التكليف (فمن الواجب تعليمهن وتعلّمهن، وقد علمهنَّ رسولُ الله صلى الله عليه و سلم، وأقرهنّ على طلب التعلم، واعتز بهن، وتفقدهن، كما في حديث ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خرجَ ومعه بلال، فظنّ أنه لم يُسْمِع النساء، فوعظهنّ وأمرهنَّ بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القُرْطَ والخَاتَم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه). وللمرأة في المجتمع مسؤولية القيام بالجانب الداخلي للحياة على تشعب مهامه، يقول رسول الله صلى الله عليه و سلم: (... والمرأة راعيةٌ على أهل بيت زوجها وَوَلَدِه وهي مسؤولةٌ عنهم...).

ولو أمعنا النظر في مسؤولية المرأة، لوجدناها تتحمل العبء الأكبر من أعباء الحياة، ذلك لأنها هي الحامل والمرضع، والحاضن للأطفال، والملازم لهم في مختلف أطوار نشأتهم.. لذلك وجب تهيئتها، وإعدادها الإعداد اللازم لمثل تلك المهمة.

وفي ذلك يقول الإمام عبد الحميد بن باديس: (علينا أن نكمّل النساء تكميلاً دينيًا، يهيئهُنَّ للنهوض بالقسم الداخلي من الحياة، وإعداد الكاملين ومساعدتهم للنهوض بالقسم الخارجي منها، وبذلك تنتظم الحياة انتظامًا طبيعيًا تبلغ به الإنسانية سعادتها وكمالها).

وإذا أردنا إعداد المرأة المسلمة للقيام بوظيفة تربية الأجيال، فلابد من توافر الشروط التي تؤهلها للقيام بذلك، مثل العلم الشرعي والعمل به، وهو ما يشير إليه ابن باديس بقوله: (إذا أردنا أن نكوّن رجالاً، فعلينا أن نكوّن أمهات دينيات، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتعليم البنات تعليمًا دينيًا، وتربيّتهنّ تربية إسلامية، وإذا تركناهنّ على ما هنّ عليه من الجهل بالدين، فمحال أن نرجو منهن أن تُكَوِّنَّ لنا عظماء الرجال.. وشرّ من تَرْكِهِنَّ جاهلاتٍ بالدين، إلقاؤهنّ حيث يُرَبَّيْنَ تربيةً تنفّرهنَّ من الدين، أو تحقّره في أعينهنَّ، فيصبحن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهنّ.

لذا كان تعليم المرأة أمرًا حيويًا بالنسبة لمستقبل الأمة، فهي مدرسة الأجيال، إذا صلحت صلح البيت، وإذا فسدت فلا تلد إلا نَكِدًا، (فنوع تعليم البنات هو دليل من سيتكوّن من أجيال الأمة في مستقبلها).

ويذهب الشيخ ابن باديس إلى عدم اختلاط البنات بالذكور في التعليم، لأن في ذلك مفسدة لهم، وعليه: (فلا يجوز اختلاط النساء بالرجال في التعليم، فإما أن يُفْرَدْنَ بيوم... وإما أن يَتَأَخْرَنَ عن صفوف الرجال).

ويميل الشيخ إلى أن يجعل لتعليم النساء يومًا خاصًّا، ويتكرّر هذا اليوم بقدر الحاجة، ولما كانت الحاجة دائمة فاليوم مثلها. ومن قبل قال سحنون: (وأكره للمعلم أن يعلّم الجواري يخلطهنّ مع الغلمان، لأن ذلك فساد لهم). وقال القابسي: (ومن صلاحهم، ومن حسن النظر لهم، ألا يخلط بين الذكران والإناث).

ومن مبادراته لتشجيع المرأة على طلب العلم، إقرار مجانية التعليم للبنات، وفي هذا يقول الشيخ: (ندعو إخواننا المسلمين إلى المبادرة

بأبنائهم وبناتهم إلى المكتب (مكتب جمعية التربية والتعليم بقسنطينة).. فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم (الرسوم) إلا القادرون، وأما البنات فيتعلمنّ كلهنّ مجانًا، لتتكون منهن -بإذن الله- المرأة المسلمة المتعلمة...56

وأبرز إنجاز هو تاسيس جمعية العلماء المسلمين عام 1931م وهو العام الذي احتفلت فيه فرنسا بمرور قرن على احتلال الجزائر – في استفزاز واضح-،والتي سنأتي على ذكرها في المحور الثالث-إن شاء الله-.

- ما يستفيده الدعاة من منهج ابن باديس-رحمه الله- في الدعوة والإصلاح:

- الصلابة في الحق وعدم الاستسلام مهما كانت التحديات وعظمت الخطوب،وقد كان رجال الجمعية وعلى رأسهم ابن باديس كمثال بارزا للمقاومة الصلبة والشجاعة في الحق .وقد ربى جيلا من الشباب الذي شارك بكل فاعلية في ثورة التحرير الكبرى(1954م).

- العلم أساس العمل ،على الداعية أن ينشغل بطلب العلم الشرعي وأن يساهم بجهده في العمل الدعوي الجماعي عبر مؤسسات فاعلة،بعيدا عن الديماغوجية،ومقياس ذلك هو الالتزام بحدود الله والاخلاص في الدعوة لدينه.

- حسن التخطيط والذكاء في الفكر والحركة(البصيرة) ضرورة للداعية في ظل التحديات التي تواجه الدعوة ،وقد انتهج ابن باديس منهجا ذكيا في التعامل مع أعداء الدعوة سواء من الداخل أو من الخارج،وخاصة من خلال الصحف التي كان يصدرها.

- أهمية الإعلام الاسلامي في نشر الدعوة ،وقد ركز إبن ياديس رحمه الله على هذا الجانب ادراكا منه لأهميته في نشر الوعي بمخاطبة أكبر عدد من الناس،،،،

- أصل الاصلاح والتغيير وقاعدته التي رفعتها كشعار :الآية 11 من سورة الرعد:"إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم"...حيث أن التغيير الداخلي أساس للتغيير الظاهري،ولا سبيل الى تحقيقه إلا بالتربية والتعليم.

- دور الاصلاح التربوي في الدعوة ونشر رسالتها ،وهو ما ركزت عليه الجمعية،وخاصة تعليم المرأة وتثقيفها ،باعتباره عنصرا هاما وخيرا في أي تغيير اجتماعي....

- يجب على الداعية أن يلتزم أصول الحكمة في تعامله مع التيارات المعادية فلا يثير حفيظتهم أو يعمد لمواجهتهم مباشرة خاصة إذا كان هو في موقف المستضعف،ولهذا أعلنت الجمعية بعدها عن السياسة في ميثاق تأسيسها.

- ضرورة إحياء سيرة علماء الإصلاح والعمل على مواصلة مسيرتهم الدعوية مع التطوير والتحديث بما يتواكب مع ظروف وتحديات العصر.

-التركيز في الاصلاح على جانب الخلل الداخلي،وخاصة تصحيح العقيدة،وتنقية النفوس من سلبيات الخرافية والتواكل والقدرية،لأن:"إن الله لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم"(الرعد/11).،ولهذا ركز الامام على محاربة قيم التواكل والسلبية التي كانت تبثها بعض الطرقية.

---

56)- نفس المرجع.

المحاضرة 10

العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

– مولده :ولد عام 1889م في قرية (أولاد ابراهم)برأس الوادي قرب ولاية(برج بوعريريج). تلقى تعليمه الأوَّلي على والده وعمه ؛ فحفظ القرآن ودرس بعض المتون في الفقه واللغة

– مساره العلمي وجهده الدعوي:.

غادر الجزائر عام 1911 ملتحقاً بوالده الذي كان قد سبقه إلى الحجاز ، وتابع تعليمه في المدينة ، وتعرف على الشيخ ابن باديس عندما زار المدينة عام 1913 ، غادر الحجاز عام 1916 قاصداً دمشق، حيث اشتغل بالتدريس، وشارك في تأسيس المجمع العلمي الذي كان من غاياته تعريب الإدارات الحكومية، وهناك التقى بعلماء دمشق وأدبائها، ويتذكرهم بعد ثلاثين سنة من عودته إلى الجزائر فيكتب في (البصائر) العدد 64 عام 1949: "ولقد أقمت بين أولئك الصحب الكرام أربع سنين إلا قليلاً ، فأشهد صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة ، وأنها هي الجزء العامر في عمري الغامر ، ولا أكذب الله ، فأنا قرير العين بأعمالي العلمية بهذا الوطن (الجزائر) ولكن ... مَن لي فيه بصدر رحب ، وصحب كأولئك الصحب ؛ ويا رعى الله عهد دمشق الفيحاء وجادتها الهوامع وسقت ، وأفرغت فيها مـا وسقت ، فكم كانت لنا فيها من مجالس نتناقل فيها الأدب ، ونتجاذب أطراف الأحاديث العلمية...".

في عام 1920 غادر الإبراهيمي دمشق إلى الجزائر ، وبدأ بدعوته إلى الإصلاح ونشر العلم في مدينة (سطيف) ، حيث دعا إلى إقامة مسجد حر (غير تابع للإدارة الحكومية) وفي عام 1924 زاره ابن باديس وعرض عليه فكرة إقامة جمعية العلماء ، وبعد تأسيس الجمعية أُختِير الإبراهيمي نائباً لرئيسها ، وانتدب من قِبل الجمعية لأصعب مهمة وهى نشر الإصلاح في غرب الجزائر وفى مدينة وهران وهي المعقل الحصين للصوفية الطرقيين، فبادر إلى ذلك وبدأ ببناء المدارس الحرة ، وكان يحاضر في كل مكان يصل إليه، وهو الأديب البارع والمتكلم المفوَّه، وامتد نشاطه إلى تلمسان وهى واحة الثقافة العربية في غرب الجزائر وقامت قيامة الفئات المعادية من السياسيين والصوفيين وقدموا العرائض للوالي الفرنسي؛ يلتمسون فيها إبعاد الشيخ الإبراهيمي ، ولكن الشيخ استمر في نشاطه ، وبرزت المدارس العربية في وهران.

- وفي عام 1939 كتب مقالاً في جريدة (الإصلاح) ؛ فنفته فرنسا إلى بلدة (أفلو) الصحراوية ، وبعد وفاة ابن باديس انتخب رئيساً لجمعية العلماء وهو لا يزال في المنفى ولم يُفرج عنه إلا عام 1943، ثم اعتقل مرة ثانية عام 1945 وأفرج عنه بعد سنة. وفى عام 1947 عادت مجلة (البصائر) للصدور ، وكانت مقالات الإبراهيمي فيها في الذروة العليا من البلاغة ومن الصراحة والنقد القاسي لفرنسا وعملاء فرنسا. يقول عن زعماء الأحزاب السياسية:

"ومن خصومها (أي الجمعية) رجال الأحزاب السياسية من قومنا من أفراد وأحزاب يضادّونها كلما جروا مع الأهواء فلم توافقهم ، وكلما أرادوا احتكار الزعامة في الأمة فلم تسمح لهم ، وكلما طالبوا تأييد الجمعية لهم في الصغائر – كالانتخابات – فلم تستجب لهم ، وكلما أرادوا تضليل الأمة وابتزاز أموالها فعارضتهم" . ودافع في (البصائر) عن اللغة العربية دفاعاً حاراً: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ، ولا دخيلة ، بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها ، وهي ممتدة الجذور مع الماضي مشتدة الأواصر مع الحاضر ، طويلة الأفنان في المستقبل"..

واهتمت (البصائر) بالدفاع عن قضية فلسطين ؛ فكتب فيها الإبراهيمي مقالات رائعة. عاش الإبراهيمى حتى استقلت الجزائر ، وأمّ المصلين في مسجد (كتشاوة) الذي كان قد حُوّل إلى كنيسة ، ولكنه لم يكن راضياً عن الاتجاه الذي بدأت تتجه إليه الدولة بعد الاستقلال ؛ فأصدر عام 1964 بياناً ذكر فيه: "إن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية".

وفاته

تُوفي – رحمه الله – يوم الخميس في العشرين من أيار (مايو) عام 1965. بعد أن عاش حياة كلها كفاح لإعادة المسلمين إلى دينهم القويم ؛ فجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين. رحمه الله..

المحاضرة 11

الشيخ الداعية الشهيد العربي التبسي

الشيخ العربي التبسي:(1895-1957) أحد أعمدة الإصلاح في الجزائر ، وأمين عام جمعية العلماء المسلمين والمجاهد البارز الذي خطفته يد التعصب والغدر الفرنسية عام 1957 ولم يُسمع له ذِكر بعدها.

– نشأته وتعلمه:

وُلد الشيخ العربي عام 1895 في بلدة (ايسطح) من أعمال (تبسة) التابعة إقليميا لقسنطينة. حفظ القران في قريته ثم انتقل إلى تونس لتلقي العلم في زاوية (الشيخ مصطفى بن عزوز) ، انتقل بعدها إلى جامع الزيتونة ؛ فنال منه شهادة الأهلية وعزم على الانتقال إلى القاهرة لمتابعة التحصيل العلمى في الأزهر.

– عودته إلى الجزائر وجهوده في الدعوة والاصلاح:

عاد إلى الجزائر عام 1927 واتخذ من تبسة مركزاً له وفي مسجد صغير في قلب المدينة انطلق الشيخ في دروسه التعليمية وواصل الليل بالنهار لإنقاذ هذا الشعب من الجهل وذل الاستعمار الفرنسي للجزائر ، وبدأت آثار هذا الجهد تظهر في التغيير الاجتماعي والنفسي لأهل تبسة؛ حيث بدأت تختفي مظاهر التأثر بالفرنسيين وبدأ الناس يلتفون حول رجال الإصلاح.

وكالعادة ضُيّق على الشيخ ، فنصحه الشيخ عبد الحميد بن باديس بالانتقال إلى غرب الجزائر ، فاستجاب لذلك ، ولكن أنصاره في تبسة ألحوا عليه بالعودة وأسسوا مدرسة طلبوا منه أن يكون أول مدير لها. وبعد وفاة عبد الحميد بن باديس ونفْي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي اتجهت الأنظار إلى الشيخ العربي ليحمل المسؤولية ويتابع الرسالة الإسلامية وتوافد إليه طلاب العلم من كل مكان ، وفي عام 1947 تولى العربي إدارة معهد **ابن باديس** في قسنطينة فقام بالمهمة خير قيام. يقول عنه الإبراهيمي: "والأستاذ التبسي – كما شهد الاختبار وصدق التجربة – مدير بارع ومربٍ كامل خرجته الكليتان الزيتونة والأزهر في العلم وخرجه القرآن والسيرة النبوية ، فجاءت هذه العوامل في رجل يملأ جوامع الدين ومجامع العلم ومحافل الأدب".

وفي عام 1956 انتقل الشيخ إلى العاصمة لإدارة شؤون الجمعية فيها ، واستأنف دروسه في التفسير وكان شجاعاً لا يخاف فرنسا وبطشها ، يتكلم بالحق ، ويدعو للجهاد ولم يأبه لتحذير الناصحين المحبين له الذين خافوا عليه من فرنسا والتي كانت تعلم مكانته بين صفوف الجماهير ، وأثره عندما يدعوها للجهاد ، وهو ليس من الناس الذين يتكلمون ولا يفعلون ، بل يقول:"لو كنت في صحتي وشبابي ما زدت يوماً واحداً في المدينة ؛ أُسرع إلى الجبل ، فأحمل السلاح ، فأقاتل مع المجاهدين".

وفاته:

وفي 17 من نيسان (أبريل) عام 1957 امتدت يد منظمة الجيش السري الذي شكَّله غلاة الفرنسيين المتعصبين لتخطف الشيخ العربي من منزله ، وليكون في عداد الشهداء ، رحمه الله رحمة واسعة.

المحاضرة 12

الشيخ الداعية المصلح امبارك الميلي

نشأته وتعلمه:

هو الشيخ **مبارك بن محمد ابراهيمي الميلي** من مواليد قرية الرمامن الموجودة بجبال الميلية (بناحية سطارة) في الشرق الجزائري دعي بالميلي نسبة إلى مدينة الميلية، ولد بتاريخ 26 ماي 1898 م وهناك من يقول سنة 1896 م الموافق لسنة 1316هـ. توفي أبوه وعمره أربع سنين كفله جده ثم عمّاه. بدأ تعليمه بجامع سيدي عزوز بأولاد مبارك بالميلية تحت رعاية الشيخ **أحمد بن الطاهر مزهود** حتى أتم حفظ القرآن الكريم.

عصره وبيئته:

عاصر مبارك الميلي جو الاحتلال الفرنسي الذي مر على تواجده قرابة المائة سنة، كان يظن الفرنسيون أنهم تمكنوا من الجزائريين بقضائهم على الانتفاضات و الثورات التي كانت تشتعل الواحدة تلو الأخرى، كان ذلك واضحا في احتفالات سنة 1930 بمناسبة مرور قرن على احتلاله الجزائر. اعتقد الاحتلال أن مستعمرة الجزائر دخلت فلك الحضارة الفرنسية من غير رجعة. شرعت نخبة من الجزائريين آنذاك بفتح جبهة جديد في المقاومة السلمية السياسية و تبلورت أفكار هذا الجيل بتأسيسه أحزابا كحزب نجم شمال إفريقيا أو حركة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر أو جمعيات مختلفة كجمعية العلماء المسلمين، هدف كل هذه التنظيمات واحد وان اختلفت طرقها أولها الحفاظ على الهوية الجزائرية الإسلامية وثقافتها العربية، الأمازيغية المتنوعة ضد المشروع الفرنسي الرامي لمحو كل ما هو إسلامي عربي في الجزائر و بشتى الطرق.

– عودته إلى الجزائر و أعماله في الدعوة و الاصلاح:

واصل الميلي دراسته أربع سنوات بمدرسة الشيخ محمد ابن معنصر الميلي بمدينة ميلة، اتجه بعدها إلى مدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري إذ التحق بالجامع الأخضر ليتابع تعلمه على يد الإمام عبد الحميد بن باديس فكان من أنجب تلامذته، توجه بعد ذلك إلى جامعة الزيتونة بتونس وضل حتى تحصل على شهادة "العالمية" سنة 1924 م. ثم رجع إلى الجزائر سنة 1925 استقر في قسنطينة يدرِّسُ طلاب العِلم بمدرسة قرآنية عصرية كانت تقع بمحاذاة جريدة الشهاب التي أسسها الشيخ ابن باديس، و بحلول سنة 1927 ،وبدعوة من سكان مدينة الأغواط ،فتح مدرسة جديدة هدفها تعليم أبناء الجزائريين بمناهج عصرية. متحررة من الطرقية المتخلفة التي دخلت عليها الشعوذة و الخرافات السائدة في ذلك الوقت، أعجب سكان المدينة بمناهجه التجديدية الإصلاحية في التعليم، بدأ تأثيره يتنامى بين السكان حيث لاقى ترحيبا و تلهفا في الأخذ بأفكاره التي تدعو إلى إصلاح المجتمع والتحرر من قيود الشعوذة والخرافات السائدة بين أوساط أهل العلم في ذلك العصر و ترك الطرق الصوفية السلبية التي أعتبرها وسيلة تخدير للعقول وتعطيل للنفوس.

قام بتأسيس أول نادي لكرة القدم بالمدينة بالإضافة إلى جمعيات خيرية تهتم بالشباب، لم تغفل السلطات الفرنسية وبعض شيوخ الصوفية لنشاطاته التي شكلت إزعاجا لهم لدرجة أنها أمرته من مغادرة المدينة بعد سبع سنوات من إقامته بها، توجه بعدها إلى مدينة بوسعادة بالجزائر لكنه لم يكد يبدأ نشاطه التوعوي حتى لاقى نفس المصير بالطرد من المدينة. عاد بعدها إلى مدينة ميلة وأسس مسجدا للصلاة و كان يخطب فيه و يلقي دروسا فيه، ثم أسس جمعية إسلامية توسع نشاطها لحد إزعاج الاحتلال و حتى العلماء المرسمين من قبل فرنسا و تخوف الصوفيين.

نشاطه في الصحافة

أبرز الشيخ مبارك الميلي نشاطا كبيرا بكتاباته خصوصا في مقالاته الصحفية التي نشرت في الصحف الجزائرية الناطقة بالغة العربية من بين بينها جريدة المنتقد، الشهاب ، السنة و البصائر التي كان قد استلم إدارتها من الشيخ الطيب العقبي عام 1935 . تميز الميلي بأسلوبه القوى الواضح ذو النزعة المجددة المناهضة للأحوال المزرية للجزائريين، خصوصا في الجانب الديني، الاجتماعي كتب كتابا في 1937 بعنوان رسالة الشرك ومظاهره واصل ادارته بجريدة البصائر حتى منعهاالإستعمار مع بداية الحرب العالمية الثانية في 1939 و من مؤلفاته أيضا تاريخ الجزائر في القديم و الحديث مقالات بحوث كتبها في جريدة " الجمعية" وسيقوم الشيخ أبو عبد الرحمن محمود الجزائري بجمعها و طبعها

نشاطه في جمعية العلماء المسلمين:

سنة 1931 م بالجزائر العاصمة تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أصبح عضوا في مجلس إدارتها وأمينا لماليتها

آثاره ومكانته العلمية:

من مؤلفاته : - كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" - كتاب "الشرك ومظاهره"

وفاته : عانى الميلي من مرض السكري منذ 1933 و اشتد عليه منذ وفاة شيخه عبد الحميد ابن باديس إلى ان توفي في يوم 9 فبراير (شباط) سنة 1945

المحاضرة 13

الداعية الاستاذ الفضيل الورتلاني:

من كبار الدعاة المصلحين الذين سطّروا أسماءهم بأحرف من نور، الفضيل الورتلاني- رحمه الله-(1900/1959م) ، ا لرجل الذي ما عاش لنفسه بل عاش للاسلام وللجزائر، بل وللعا لم الاسلامي كله ....

- **نشأته:** كان مولده يوم 06 فبرايرعام 1900م،بقرية (آنو) دائرة بني ورتيلان التابعة لولاية سطيف، في أسرة (حسنين)من أشراف بلاد القبائل الاشم،أسرة علم ،حيث كان جده الاعلى (جد والده)سيدي الحسين الورتلاني من كبار العلماء وهو صاحب (الرحلة الورتلانية)،،، عُرف عن الصبي منذ نشأته الذكاء والفطنة،حفظ القرآن الكريم ،ودرس الفقه على يد العلامة الشيخ(السعيد البهلولي) بمسقط رأسه،ولما شب انتقل الى مدينة قسنطينة عام 1928م وهي حينذاك مدينة يؤمها طلبة العلم من أصقاع البلاد ،وهناك انخرط في مجالس العلم التي كان يؤمها مرشد الامة وباعث نهضتها الامام (عبد الحميد بن باديس)،،وسرعان ما اكتشف الاستاذ اللمّاحة في تلميذه مخايل الذكاء والمقدرة العلمية ،فعينه ممثلا لجريدة (الشهاب) و مدرسا بالمدرسة الخيرية منذ عام 1932م،،، فانفتحت امامه بذالك آفاق واسعة لخدمة دينه ووطنه بماأوتيه من علم ومقدرة واصرار،فساهم بفعالية في النشاط الاصلاحي بلسانه ،يخطب ويحاضر على هدي أستاذه العظيم ،وبقلمه يحرر المقالات المشبّعة بروح الوطنية والايمان، والتي كان ينشرها في البصائر والشهاب ،،،وهو يتطلّع للاصلاح والتغيير الذي نهل مشربه من روح وعقل أستاذه ابن باديس.57.

وقد كان الشيخ ابن باديس لماحة عارفا بأقدار الرجال ،فعرف في تلميذه الكفاءة اللازمة للقيام بالمهمّات الصعبة ،فأوكل اليه مهمة تعهد المغتربين من ابناء الوطن المغتصب، للحفاظ على دينهم وروحهم الوطنية واخلاقهم؛ استعدادا لميقات معلوم،،،،،ورغم صعوبة المهمة، لم يتردد الفضيل في القيام بالواجب الخطير في ظل ظروف الصراع والغطرسة الاستدمارية ،فشد عصا الترحال الى فرنسا عام 1936م.

– نشاطه الدعوي:

انبرى الفضيل الداعية للقيام بتلك المسؤولية الدينية في تبليغ رسالة التوعية الدينية والوطنية ،بما حباه الله تعالى من سمات أهّلته لتلك المهمة الشاقّة،وصدق من قال :"إذا أرادك لأمر هيّأك له"...

ومن أبرز هذه السّمات: الهمّة العالية التي منحته قدرة لا تفتر على النشاط والحركة ،وعمل متواصل لا ينقطع ،وهذا ما يغذيه عند الفضيل إيمانه العميق برسالته،والحماسة المتدفقة لخدمة دينه ووطنه؛ والايمان وقود الطاقة والدافع للحركة، وأساس البناء الحضاري كما يقول مالك بن نبي –رحمه الله– .

و قدرة على البيان والخطابة والاقناع ،ولايخفى ما لهذه الميزة من دور في نجاح الداعية ،باعتبار أن الاسلوب الدعوي البليغ من أهم شروط التبليغ الناجح،وهو ماكان للفضيل فيه القدح المعلّى،ومن ذلك مايرويه عنه الاستاذ(محمد الصالح الصديق)،،،فقد ألقى خطابا يوما في حشد من المغتربين الجزائريين حول الدين والوطنية،ألهب فيهم الحماس الديني ،وخلب به الألباب ،ولما نزل من المنصة،تعالت بعض الاصوات باللهجة الامازيغية تبدي أسفها من عدم فهمها محتوى الخطاب ،،فصعد المنصة ثانية وألقى خطابا بتلك اللهجة اهتزت له القاعة.58

---

57)–الفضيل الورتلاني،الجزائر الثائرة،ط3،الجزائر:دار الهدى،1992م،،ص30

58)_–المرجع السابق،،ص 20، 1

وبذلك تمكن في ظرف قصير نسبيا من إنشاء أكثر من ثلاثين ناديا ومدرسة لتعليم ابناء المسلمين وتحصينهم من مظاهر المسخ الثقافي والخلقي.تحت اسم (التهذيب)..تعرف من خلالها على كبار العلماء ورجال الفكر ، لعل من أشهرهم أمير البيان (شكيب أرسلان)...ولم تكن عين الاستدمار الفرنسي غافلة عن خطورة مثل هذه النشاطات على أهدافها، فعمدت الى تعقّب حركاته، ومحاصرته،وحاولت اغتياله –كما يذكر نجله الاستاذ مسعود حسنين – مما اضطره ذلك الى مغادرة فرنسا سرا (بمساعده صديقه العلامة شكيب ارسلان)فرحل الى مصر عام 1938م بعد أن بذر هناك(فرنسا) بذورا طيبة،....وكانت القاهرة في ذلك الوقت ملتقى الثقافات ومنبع العلوم ومجمع العلماء والمفكرين ،فوجد فيها الفضيل الساحة التي يفجر فيها طاقاته الجهادية لخدمة دينه ووطنه،وقد وجد الفرصة السانحة لمواصلة دراسته بالأزهر الشريف،ولجدّه واجتهاده حصل العالمية من كلية أصول الدين والشريعة الاسلامية ،،،

ولم يكن الطّلب ليشغل الفضيل عن خدمة وطنه وشعبه فأسّس عام 1942(الجمعية العليا للدفاع عن الجزائر) ،كما أسس عام 1944(جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا)ثم أسّس (مكتب جمعية العلماء المسلمين)في القاهرة عام 1948م والذي استقبل فيه الشيخ(البشير الابراهيمي) عام 1952 م...وكان قد تعرف على شخصية الامام (حسن البنا)–مؤسس جماعة الاخوان المسلمين– وأُعجب بأفكاره في الاصلاح والتغيير ،وعرف أنهما ينهلان من مشكاة واحدة ،فأصبح عضوا في حركة الاخوان المسلمين لاقتناعه بضرورة تظافر الجهود في هيآت ومؤسسات لخدمة الدعوة ،خاصة مع تلك التحديات الكبرى التي تتهدّد الاسلام في جذوره تحاول استئصاله.

ولم تكن خصائص الفضيل وماتميّز به من قوة ايمان بالمبدأ وحماس فياض للعمل ،وذكاء وقّاد وهمة لاتفتر إضافة الى تلك المقدرة الخطابية التي تميّز بها ،لتخفى على البنا ،فانتدبه للعمل الاصلاحي في اليمن مع بعض اخوانه ، مثلما فعل من قبله أستاذه في الجزائر الامام ابن باديس59(حين انتدبه للعمل بفرنسا) .ولما كان الفضيل قد نذر نفسه لخدمة قضايا الاسلام والمسلمين أينما حل وارتحل ،فإنه لم يتردد في تحمل المسؤولية الخطيرة ،خاصة في تلك الظروف العصيبة :فتن داخلية ومؤامرات خارجية ....والمعروف أن العمل الدعوي في ظل الفتنة هو من أخطر وأصعب الامور ....وفعلا فقد وجد الفضيل الظروف في اليمن على أسوأ ما يكون : فوضى عارمة ،وجهل مطبق طال كبراء القوم بله عوامهم... ولم يمنع ذلك الفضيل من تأدية واجبه على أحسن وجه(حيث قدم نفسه هناك كممثل لشركة تجارية،وكان يقوم بالقاء الدروس والمحاضرات في بعض المدن الرئيسية في اليمن يهيء الجو للثورة على نظام يحي حميد الله الفاسدة ،وهو ما تم فعلا ، حيث قامت ثورة تزعمها حزب الاحرار انتهت بمقتل الامام يحي عام 1948م لكن الثورة لم تحقق كل أهدافها ففشلت واتُّهم الورتلاني بتدبيرها،، فخرج الفضيل من اليمن سرا عن طريق البحر، اضطرّ خلالها لسكنى البحر ،حوالي أربعة أشهر، إذ لم يجد دولة واحدة تستقبله،خوفا ووجلا ،أو خضوعا لضغوط ما...

في عام 1950م اتّسع نشاطه الدعوي فسافر الى كل من سوريا ،تركيا ،اليونان ،ايطاليا،سويسرا...وغيرها ..بعزيمة لا تفتر غير عابئة بالتعب الجسمي ،وأخطار ومصاعب الطريق ،لأن الرجل صاحب رسالة ووارث للنبوة ..وقمين بمن كان هذا شأنه أن لا ينحني أمام الصعاب مهما كانت ومهما اشتدّت وطأتها ....وماكادت تندلع الثورة التحريرية حتى انخرط في وفد جبهة التحرير الوطني في القاهرة لخدمة قضية

---

59)_عمر بن قينة،..أعلام و في الفكر والثقافة والادب ،دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق2000...

وطنه بالدعم المادي والمعنوي،عن طريق جمع التبرعات ،والحث على دعم الثورة واستنهاض الهمم بالخطب وبما كان يكتبه من مقالات حماسية تتميز بصدق العاطفة وبلاغة الاسلوب،كما نقرؤها في (الجزائر الثائرة)،وهو كتاب جُمعت فيه هذه المقالات ....ونظرا للمجهودات الجبارة التي كان يبذلها الرجل ،وكثرة تنقلاته وأسفاره في خدمة الدعوة ،أنهكه المرض ،فانتقل للتداوي باحد مستشفيات تركيا،لكن ارادة الرحمن شاءت أن تنتقل الروح الى بارئها راضية مرضية ،وكان ذلك في 12مارس 1959م دون أن يشهد استقلال وطنه،رحمه الله تعالى في الخالدين.

– خصائص الدعوة عند الفضيل– رحمه الله –:

يمكننا أن نرصد –باختصار– أهم ما تميز به الفضيل في حركته الدعوية التي نذر نفسه لها.وهي:

1)_ التفاؤل وقوة العزيمة : رغم أن ليل العالم الاسلامي بصفة عامة وليل الجزائر بصفة خاصة كان كالح السواد،وأن الاخطار كانت تحوط الامة من كل جانب ،وان مرحلة الاستضعاف طالت واستطالت،إلا أن الفضيل كان متفائلا بالمستقبل،وبأن النصر قادم ،وأن المستقبل لهذا الدين ،يذكر عنه صديقه(بعزيزبن عمر):"عرفت الاخ الورتلاني ،أيام الطلب بقسنطينة وهو شاب يتقد ذكاء ويفيض نبلا واحساسا ،يبتسم للحياة،فلا نراه الا متفائلا بالمستقبل ،يتطلع الى الآفاق البعيدة،فتبدوا أمامه العقبات الكبيرة،ولكن ليس بالذي ترهبه العقبات فيجبن عن اقتحامها ،بل ان له من عزمه ما يذيب كل عقبة ومن نفس وثّابة ما يتغلب به على كل ما تقيمه الحياة المتجهمة في طريق العاملين المخلصين"60 . ولا شك أن التفاؤل هو شرط العمل الناجح الفعّال الذي يضمن للدعوة التمكن والاستمرار؛لأن اليأس من شأنه في جميع الاحوال أن يفتر العزيمة ويتعب الجسد ويدفع للاستسلام بسبب الهزيمة الداخلية التي التي تصيب اليائس ،فلا عجب أن اعتبره الله تعالى قرين الكفر [إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون] (يوسف/87).أما التفاؤل فهو ينبوع الحركة والحياة.وواجب الداعية أن يكون متفائلا مهما ادلهمّت الخطوب ،وأن يعمل على زرع التفاؤل في مُخاطبيه..ومن قال هلك الناس فهو أهلكهم أو أهلكُهم ،كما جاء في الحديث.....

2) _ سعة العلم: تعتبر محدودية المعرفة وضآلتها خاصة في الجانب الشرعي، من أهم معوقات الدعوة، لانها تؤدي الى نتائج عكسية بالنسبة للداعية فربما حكم فزلّ،أوقضى فظلّ وأظلّ،وذلك ما يؤدي الى تنفير المخاطبين وعد م اقتناعهم بفحوى الخطاب ،وهذا ماجعل الفضيل –رحمه الله–يسارع الى مواصلة دراسته الشرعية في الازهر الشريف ،ويحصل منه على العالمية، فتمكن من ناصية المعرفة بما تميز به من ألمعية وتوقد ذهن ،وهو ماأهّله لأن يخلف، في بعض الاحيان (حسن البنا) في تقديم حديث الثلاثاء...

3) _ قوة النشاط والحركة: الدارس لسيرة الرجل يتعجب لكثرة أسفاره ورحلاته التي جاب بها أقطار الدنيا ،شرقا وغربا ،ولم يكن ذلك رغبة منه في السياحة والترويح عن النفس،كما يفعل الكثيرون غيره ممن يبتغون عرض الحياة الدنيا،بل كان دافعه لذلك تبليغ الدعوة وخدمة

1)–مجلة البصائر،عدد8،سنة1،سلسلة 2 يوم،26سبتمبر1947م،نقلا عن الجزائر الثائرة،ص11 .

قضايا أمته ووطنه،ومما ذكرنا نلمس ذلك الجهد الكبير الذي بذله لتحقيق هذا الهدف ،سواء في فرنسا التي أنشأ فيها ما يربو على 30ناديا في وقت وجيز ،أو في مصر على ماذكرناه،وكما يقول المتنبي : وإذا كانت النفوس عظاما +++ تعبت في مرادها الأجسامُ

وهذا ما أدى الى اشتداد المرض بجسمه ،ثم وفاته فيما بعد،،،،ولا جرم فالداعية ليس فيلسوفا يوطوبيا ،يخاطب العقول من برجه العاجي ،ويقدم للناس النظريات المعرفية وهو متّكيء على أريكته ،دون أن يحتك بهم ويمتزج بمعاناتهم،ويتذوّق أحوال معايشهم، بل ان حياة الداعية حركة دؤوب وجهد مستمر لخدمة الناس ،بتوعيتهم وتثقيفهم ،ولم تكن الدعوة في أي وقت مجرّد خطب منبرية ومواعظ تُقدم في المناسبات فقط،وهو ما كان الفضيل –رحمه الله– يفقهه تماما...

4_ الموضوعية ونصرة الحق: من أهم صفاة الداعية ،أن يكون بجانب الحق والحقيقة مهما كان ذلك مخالفا لمقتضيات شخصيتة،ونوازع نفسيتة،وأن يكون صريحا بأدب ، وكذلك كان الفضيل في دعوته،،،،لقد كان أشد ما يؤلمه –رحمه الله–تفرّق المسلمين وتشتّتهم ،كلُ يدّعي وصلا بليلى..فكان دائم الانكار عليهم ،يدعوهم الى التعارف ثم التآلف والتعاون خاصة أمام خطورة التحديات الكبرى التي تواجه جميعهم.

وكان شديدا إزاء حكام المسلمين باعتبارهم مسؤولون أمام الله عن شعوبهم ومصير أوطانهم. وكان لا يفتأ يوجّه أنظارهم الى حال أعدائهم المتماسكين المتعاونين في باطلهم، فتحت عنوان: "اقتدوا بخصومكم أيها العرب"....نراه ينعي على العرب تبلدهم و تفرقهم على حقهم واجتماع اليهود على باطلهم،....61

ورغم أن أصول الفضيل العرقية، بربرية،وهو يتقن الحديث بلهجة البربر، الا أنه كان من أشد أنصار اللغة العربية مدافعا ،منافحا ،بل كان أشد مايغيضه إهمال العرب للغتهم وتقاعسهم عن نصرتها، مع ما تتعرض له من عدوان كاسح،واعتبر أن اهانتها من اهانة الاسلام ذاته،ولا يكتفي بذلك بل ويذهب الى أن سكان بلاد المغرب العربي ومنها الجزائر كلهم عرب ،إذ أن البربر قد تعرّبوا بمرور مراحل التاريخ ؛بامتزاج النسب مع الوافدين العرب،وكونهم شديدوا الاعتزاز بدينهم المرتبط بلغته ،اللغه العربيه...

و يظهر لنا الفضيل من خلال ذلك بعيدا عن التعصب المقيت لغير دينه ولغته العربية كما يفعل غيره ،حيث نجد منهم من يفرق _عن حسن نية أو عن سوئها– بين الاسلام وبين اللغة العربية،ولهذا كان الفضيل يحذّر من أدعياء الوطنية المزيّفين الذين يدندنون برفض اللغة العربية،وما دندنتهم تلك الا صدى لما يردّده الاستدمار الفرنسي،الذي رفع دعوى البربرية في اطار سياسته الخبيثة (فرّق تسد)62..

ولهذا كان –رحمه الله– شديد النكير على أولئك الذين يجأرون بحب فرنسا، معتقدين أنها مثال الحضارة والتقدم، والجمال والكمال،متناسين ماقامت به من جرائم يندى لها جبين الانسانية، وختم مقالا له في الموضوع بنداء له مغزى عميق يقول فيه:<<..يا

---

1)–البصائر،عدد29 سبتمبر1954،م س،ص23

62)–الجزائر الثائرة،م، س،ص64،63

أصدقاء فرنسا الكرام...،إنكم في عصر المعرفة والمنطق، فالرجاء أن تحرصوا على معرفة الحقائق في عظائم الامور وعلى تحكيم المنطق وحده دون العواطف والشهوات >>..63

وقد كان أسلوبه في بيان جرائم الاستدمار الفرنسي تستند الى شهادات الفرنسيين أنفسهم من باب "وشهد شاهد من أهلها"،،وكان لذلك وقعه في النفوس واقناعه للعقول.كما يظهر من خلال الرسالة التي وجهها الى رئيس حكومة فرنسا (دي موليه)64 ،،أسلوب الداعية الراشد، المعتمد على عبارات لينة ملطّفة لكسب ثقة المخاطب،واستنفار قواه العقلية والعاطفية لتقبل الرسالة،بعد تهيئة أرضية ملائمة للاقناع ،وهو أسلوب الدعوة التي أمر بها الله تعالى نبيه موسى-عليه السلام- وأخوه حين أرسلهما الى فرعون (إذهبا الى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا ليّنا لعلّه يتذكّر أو يخشى] (طه/43،43) . استمع اليه وهو يقول في رسالته:<<...وعليه فإني كجزائري حر،كرّس حياته لخدمة هذه الامة المظلومة، وقضى زهرة شبابه في بناء نهضتها ،وكمغربي عارف بما في المغرب العربي كله،ومؤمن بوجوب وحدته المقدّسة،ثم إني كإنسان مؤمن بالمثل العليا ومحب لخير الانسانية جميعا والتي منها الشعب الفرنسي العريق[لاحظ]،أتقدم من أجل ذلك كله الى دولتكم بهذا الكتاب المفتوح،راجيا أن يصادف ما فيه من حق ثقيل كل قبول واهتمام عندكم؛ لأنكم انما دعيتم الى هذا المنصب خصيصا لأجل إحقاق الحق [لاحظ] ،مهما كان ثقيلا على بعض النفوس المريضة،مرضا مزمنا،ولانه الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى إسعاد امتنا وأمتكم جميعا. [لاحظ] ...>> 65 ثم عدّد له مطالب الشعب الجزائري.

وبعد اندلاع الثورة نراه يوجه خطابه الى الشعب الجزائري بأسلوب دعوي حصيف وبكلمات حارة ،لا تدع عذرا لمعتذر ،ولا حجة لمنكفيء....استهلّه بالنداء أولا: "أيها المسلمون الجزائريون"، ثم يذكرهم ببشاعة أعمال الاستدمار وفضائعه،،، ثم"أيها الاخوان الجزائريون"ويذكر لهم كل ما تم بذله من جهود سلمية في سبيل نيل استقلالهم وحفظ كرامتهم دون جدوى ،....ثم"أيها الاخوة الجزائريون الابطال"ويحثهم على الجهاد المسلح الذي ما بقي لهم سبيل سواه،مذكرا اياهم أنه السبيل الذي ماتركه قوم الا ذلّوا...،ثم "أيها الاخوة المسلمين"ويحذرهم من التراجع أو الانخذال رغم صعوبة الطريق وخطورته،ويحثهم على بذل المزيد من التضحيات في سبيل تحقيق النصر الكامل....

هذا غيض من فيض السيرة الدعوية لهذا الرجل العظيم الذي جاهد في الله حق جهاده ،لأنه ماعاش لنفسه وإنما عاش للاسلام وللجزائر، بل وللعالم الاسلامي كله ،وأقل ما نقدمه وقفة تأمل لمساره الجهادي، علّنا نستفيد منه في رسم الطريق لنهضة أمتنا ولخير شعبنا عبر منهج دعوي راشد رشيد في ظل تحديات جديدة.....

---

63)-نفس المرجع، ص111 .

64)-نشرتها جريدة بيروت المساء يوم 26/ 27فيفري 1956، والمنار الدمشقية،عن م، س ، ص 162 1

3)- م س،ص162، 163

المحاضرة: 14

المفكر الإسلامي مالك بن نبي

- مالك بن نبي و العوامل المؤثرة في ثقافته:

– نشأته ورحلاته :ولد مالك بن ساعد بن نبي،و (زهيرة حوّاس)، بمدينة قسنطينة مساء الأول من جانفي عام 1905م (شهر ذي القعدة عام 1323هـ) (66)، لأسرة فقيرة ،انتقل في صغره إلى مدينة (تبسّه) حيث زاول تعليمه الابتدائي بها بالمدرسة الفرنسية على الطريقة النّظامية الحديثة، وموازاة مع ذلك كان يتردد على المدرسة القرآنية لحفظ القر آن على الطريقة التقليدية.

بعد إنهائه للمرحلة الإعدادية بتفوّق انتقل إلى قسنطينة لإتمام دراسته الثانوية عام 1328هـ 1920م، وكان يتلقى دروسه بالفرنسية ويتردّد إلى جانب ذلك على دروس النحو العربي بالجامع الكبير ويعمل على تعلم الموسيقى على يد عمه محمود ويتعرف إلى الزاوية العيسوية من خلال جده ،كإحدى الطرق الصوفية المنتشرة في ذلك الوقت(67).

بعد التحاقه بالقسم الداخلي بدأ وعي الفتى السياسي والديني يتفتح على فكر جديد حيث بدأ كما يقول: "الشرق القديم والحديث يستهويني بأمجاده ومآسيه، وكان الحديث عنه يبكيني أو يبهرني، إنما في الحالات جميعها يشدني إلى شيء خبيء في نفسي بدأت أدركه في شيء من الصعوبة." (68)... ولاشكّ في أن فكر الإصلاح والتغيير، قد تلقاه على يد أستاذه في التوحيد والسيرة الشيخ (المولود بن الموهوب)،الذي سبق ذكره ،والذي كان بدوره تلميذا للشيخ (عبد القادر المجاوي) الذي تتلمذ على يد الشيخ (بن مهنا) العالم الإصلاحي المتأثر بتيار الفكر الإصلاحي لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده القادم من المشرق.

وقد كان مالك يدين أيضا لأساتذته الفرنسيين وخاصة أستاذه (بوبريتي Bobreiter) في تلقينه منهج تفكير عقلاني ديكارتي طبع فلسفته... وفي هذه الفترة كان نهما للقراءة ؛ قرأ بالفرنسية ل(بيار بورجي) وقرأ ل(شاتوبريان) وقرأ للمفكر الحسي (كوندياك) و(جون

---

(66) – استنادا الى نسخة من شهادة ميلاد صادرة من بلدية قسنطينة تحت رقم 09،محررة بتاريخ 20افريل2003م.

(67) – مالك بن نبي ،مذكرات شاهد للقرن ، الطفل والطالب ،ط2 ،الجزائر ودمشق: دار الفكر1404هـ/ 1984م، ص 33 .

(68) – نفس المرجع، ص 64 .

ديوي)(69) وكاد أن يذهب في دراساته ومطالعاته ابعد من مجرد القراءة الناقدة لولا دروس أستاذه (المولود بن الموهوب) والشيخ (بن العابد) التي كانت تأخذ بيده حتى لا يتيه في الفكر المادي..

ولم تقتصر قراءته على الفرنسية بل قرأ موازاة مع ذلك رسالة التوحيد ل(محمد عبده) والإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق ل(أحمد رضا). (70)

في هذه المرحلة كان مالك منشغلا بمشكلات العالم الإسلامي من خلال قراءاته المزدوجة ومشاهداته الشخصية مع ما أوتيه من دقة ملاحظة المظاهر والظواهر الاجتماعية، جعلته يحمل هم مجتمع متخلف مستعمر، ولشدة ما كان يؤلمه حال أمته الممزقة ووطنه المغتصب تحت مخالب عدو، تنهشه منذ أمد بعيد...

بعد تخرجه متفوّقا من الثانوية عام 1924م بدأ مالك يفكر في مهنة يقتات منها، فقرر السفر إلى فرنسا مع صديق له، فنزل بها عام 1925م، ولم يكن الأمر سهلا ففشل في إيجاد عمل مناسب وعاد أدراجه،.. وفي الجزائر نجح أولا في العمل كمساعد كاتب بمحكمة ب(تبسة) ثم نجح في أن يحصل على وظيفة بمحكمة (افلو) غرب الجزائر عام 1927م، مكث بها عاما وخلال ذلك كان يطالع جريدة (الشهاب) الإصلاحية وفي مارس 1928م سافر إلى قسنطينة لزيارة أقاربه و هناك التقى لأول مرة بشيخ الإصلاح الإمام عبد الحميد بن باديس والذي كان شديد الإعجاب به معترفا بفضله الكبير، بعد انتهاء عطلته انتقل في العام نفسه إلى مدينة (شلغوم العيد) للعمل بمحكمتها لكنه سرعان ما استقال..كما فشلت محاولاته الاخرى لعمل يكتسب به لقمة عيشه. (71)

رحلته إلى باريس :

قرر الفتى الشاب الطَّموح معاودة السفر إلى باريس مع ما لاقاه من فشل في بلده، فنزل في سبتمبر من عام 1930 تحدوه أحلامه في رسم مستقبل مهني زاهر فسارع إلى التسجيل للمشاركة في امتحان الدخول لمعهد الدراسات الشرقية، لكنه فشل لاعتبارات غير موضوعية، وهنا بدأ يدرك خفايا اللعبة الاستعمارية، تعرّف على منظمة شبانية في باريس تدعى (منظمة الوحدة المسيحية للشباب الباريسيين)، ولم يجد مانعا من الانتساب إليها وقُبل كأول مسلم عضو في هذه المنظمة، كان لذلك الانتساب دوره في فكر الفتى؛ حيث تعرف من خلالها على حقيقة الثقافة الفرنسية وأبعادها السلوكية كما أمدته ببعض حاجياته المادية. وكان لهذه الجمهورية الصغيرة كما يسميها تأثير كبير في عقله وروحه.(72)

---

(69) – نفسه ، ص 114 ، 115 .

(70) – نفسه ، ص 65 ، 66 .

(71) – ن ،س ، ص 192 ، 193 ، 194 .

(72) – مذكرات شاهد للقرن ، م.س ، ص ص 211 و222 .

كان مالك ميالا إلى دراسة العلوم التطبيقية والرياضيات خاصة، فقرر بعد نصيحة من زميل له فرنسي أن ينتسب لمدرسة اللاسلكي لدراسة الهندسة الكهربائية.

– ملامح شخصية مالك بن نبي:

من خلال استقراء مذكراته المطبوعة، وما كتبه من مقالات مجموعة أو من خلال شهادة من عاشره من أصدقائه وطلبته داخل الجزائر وخارجها يمكننا استخلاص بعض ما تميز به هذا المفكر من مميزات شخصيته.

أولا– المميزات الأخلاقية السلوكية:

1– العاطفة والسماحة: كان رحمه الله قوي العاطفة، شديد الحساسية لمعاناة الناس من حوله وقد ظهرت فيه أمارات ذلك من طفولته المبكرة. فكان لا يملك دموعه وهو يستمع لذكريات جدته عن الحج(73) ، كما كان يسارع إلى مساعدة المحتاجين ولو كلفه ذلك التفريط في حاجاته، فكان –رحمه الله– ذو نفس كريمة مضيافة لا تنوء بما تنفقه عن الضيوف ولو مع الخصاصة(74) ، كما كان يبكي وهو يطالع بعض الكتب حول الإسلام (75).

2– الاجتماعية وحب مخالطة الناس: كان– رحمه الله– يكثر في مخالطة الناس من جميع طبقات المجتمع. يحادثهم ويستفيد من خبرتهم، سواء كانوا من المثقفين أو من أصحاب الحرف الأميين، فكان مع العامة يحادثهم في المقاهي ويستمع إليهم ومنهم التاجر والحداد...وله أصدقاء من الآسيويين ومن الفرنسيين وحتى من اليهود؛ إذ لم يكن مالك بن نبي ممن يضعون أنفسهم في أبراج عاجية باعتبارهم ، يرتفعون عن بقية الناس بدافع الكبر والغرور ، فكان يجتهد في تعليم الاميين من العمال في فرنسا أصول القراءة والكتابة. لولا تدخل السلطة الفرنسية في وقف هذا العمل (الخطير) بذرائع واهية...

3– علو الهمّة وقوة الطموح: كان يتمتع –رحمه الله – بإرادة قوية وطموح كبير فقد فكّر في الهجرة إلى الطائف بالسعودية وإقامة مشروع للاستفادة من الطاقة الشمسية، كما كان يريد إقامة مصنع لصناعة الاسمنت وصناعة الأصبغة والعطور.....، وفكّر في الهجرة إلى ألبانيا ثم إلى أفغانستان .... وكما كان يطمح مع صديقه (حمودة بن الساعي) أن يكونا الوارثين لجمعية العلماء بعد التخرج(76)، وقدكان يبذل من الجهد الكثير خاصة في معالجة مسائل الرياضيات والذي يستمر فيه إلى الساعة الثانية ليلا.(77)

---

(73) – المذكرات ، م. س ، ص 291 .

(74) – نفسه ،ص، ص 19 ، 299 ، 356 .

(75) – نفسه ، ص 87 .

(76) – المذكرات ، م . س ، ص 298 و304 .

(77) – نفسه ، ص 21 .

4-الالتزام الديني والنزعة الوطنية: كان رحمه الله ملتزما بالصلاة وتلاوة القرآن الكريم(78)، شديد الإيمان ، شديد الغيرة على محارم الله ، مسارعا إلى تغيير المنكر ولو بأضعف الإيمان وبالدعاء والتضرع إلى الله، كما حدث عندما تجرأ أحد متاجر الألبسة في باريس على إهانة النبي (صلى الله عليه وسلم).(79)

ويشهد على ذلك أصدقاؤه الذين عاشروه فقد ذكر احدهم انه كان في غرفته أحد رجلين فإذا كانت نافذتها مفتوحة فهو كاتب مفكر وإذا كانت مغلوقة فهو عابد مسبح ...ولم يكن يرتاد أماكن اللهو والتسلية(80).

أما وطنيته وحبه لبلده فتجسّدها رغبته الشديدة في لمشاركة في الثورة التحريرية بقلمه ولسانه وهو الدور الذي قام به على الجبهة الثقافية وعرف ذلك له زعماء الحركة الوطنية كما يقول مصطفى السباعي،(81) وقد عرض وهو في القاهرة بتاريخ الأول من سبتمبر عام 1956 على ممثلي جبهة التحرير خدماته من اجل معركة التحرير، لكن طلبه أهمل لأسباب مجهولة(82).

5- الاعتراف بالخطأ والتراجع عنه: لم يكن -رحمه الله- ممن تأخذهم العزة بالخطأ والكبرياء الفارغ فلا يعترفون بما وقعوا فيه من خطا، بل كان يمارس النقد الذاتي، فكان يسارع إلى الرجوع عن خطئه، فتراه يعترف بأن انتقاده للشيخ العربي التبسي لم يكن موضوعيا بل كان مصدره الغيرة التي كان يشعر بها فتى فقير إزاء عالم ينتمي إلى احد الأسر الثرية بتبسة(83). كما نراه يتراجع عن فكرة انتقال مركز الحضارة العالمية إلى آسيا التي تضمنها كتابه "وجهة العالم الإسلامي"(84)، وكان موضوعيا في الاعتراف بتقديره لبعض الطلبة اليهود ممن كانوا يجتهدون ويثابرون في العمل والدراسة من اجل وطن قومي لليهود- رغم باطل ما يسعون إليه- خلافا لما كان عليه الكثير من الطلبة العرب، من كسل ولا مبالاة..(85)

---

(78) - نفسه ، ن ، ص .

(79) - نفسه ، ص 229 ، 230 .

(80) - الشهادة لأحمد فوزي الحسن ، أستاذ الأدب العربي في جمعية المقاصد ، ببيروت ، ذكرها أسعد السحمراني في أطروحته، مالك بن نبي ، مفكرا إصلاحيا ، ط1، بيروت : دار النفائس ، 1984 ص 20 .

(81) - م . س ، ص 21 .

(82) - مالك ، في مهب المعركة ، ط ، الجزائر ودمشق : دار الفكر ، 1991 ، ص 90 ، 91 .

(83) - المذكرات ، ص 131 .

(84) - مالك بن نبي ، فكرة كومنولث إسلامي ، ترجمة الطيب الشريف ، ط 2 ، الجزائر ودمشق : دار الفكر 1410هـ/ 1990 م ، ص 83 .

(85) - المذكرات، ص 279 .

6- حب النّظافة والجمال: كان منذ صغره يحب النظافة والتي يتميز بها، حتى أن معلمته الفرنسية كانت تضرب به المثل لبقية زملائه التلاميذ فقد كان بحق مثالا للنظافة في الصفّ(86) مما غذّى هذا الميل الفطري للنظافة والجمال – وهو ما كان له تأثير كبير في فكره –دور زوجته الفرنسية خديجة التي كانت تحرص كل الحرص على تنظيم البيت بما يحوله أية في الجمال وحسن التنظيم والتنظيف مما جعل منه اشد ما يكون نفورا من كل ما يسيء للذوق الجميل.

7- معنى الفاعلية: الفاعلية في فكر مالك بن نبي هي استخراج أقصى الفائدة من خلال الإستخدام المنهجي المنظم للوسائل المتاحة، وقد كان رحمه الله يحب العمل والإنتاج أي تحويل الكلام المجرد الى عمل مجسّد، وكان يكره التبطّل والاتكالية، ففي لحظة حماسية قال لبعض أصدقائه وهم يتناقشون حول قضية وطني::<< إذا كنا قد قررنا صعود القمر فعلينا من الآن أن نصنع سلما ونبدأ في الصعود>> (87) وكان يأخذ على الشباب في وطنه تلحقهم في المقهى حول خطيب مفوّه دون عمل جدي نافع "كنت أتعجب من عبث هذه الشبيبة التي تقضي يومها في مقهى (باهي) تخطب ، أليس من الأجدى أن نتجند للقيام بأي أمر ايجابي حتى تتكون عندها روح الخدمة والتضحية ؟...بدا لي لو تطوّع بعض الشباب لتنظيف مقبرة المسلمين التي كانت بالقياس إلى المقابر الأخرى خاصة مقبرة اليهود، في حالة يرثى لها..." (88)، ولم يكتف بذلك بل عمد إلى تبليغهم بفكرته، فتحمّسوا لها عاطفيا ولكنهم لم يفعلوا شيئا، فأدرك أن الناس في تلك الفترة قد استولى عليهم " داء الكلام ويا له من داء قتال!!... ".(89)

ثانيا) الخصائص الذهنية والعقلية:

1- التفكير الرياضي: كان –رحمه الله – يحب الدقة في التحليل والاستدلال ويدعوا إلى ضبط المصطلحات والمفاهيم، ولا يقبل التعميم، حتى إذا أعجبته قضية منضبطة محددة قال إنها فكرة أو قضية رياضية(90)، وهذا طبعا لنفوره من مرض الثرثرة وتكوينه كمهندس كهربائي . وكان مجتهدا في حل المسائل الرياضية التي تأخذ الكثير من وقته وقد يبقى مع المسألة إلى ساعة متأخرة من الليل ويعاني في حلها

---

(86) – نفسه ، ص 36 ، 37 .

(87) – نفسه ، ص 134 .

(88) – نفسه ، ص 389 .

(89) – نفسه ، ص 390.

(90) – عبد اللطيف عبادة ، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، ط1 الجزائر : دار الشهاب ، 1404 هـ / 1984 م ، ص 18

إلى درجة البكاء(91) ولا ندري ونحن نقرأ دراساته كيف حكم أبو القاسم سعد الله على أسلوب مالك أن المسحة الأدبية تغلب عليه.(92)مع أن ذلك بعيد ، كما هو واضح لكل من قرأ فكر الرجل..

2- الذكاء الحاد ودقة الملاحظة: تميز رحمه الله بالفطنة والذكاء الشديد حتى انه يستطيع تحديد اختصاص السائل من سؤاله كما يذكر صديقه فوزي الحسن، ومما يدل على ذلك تلك المناقشات التي كان يجريها مع بعض الطلبة وخاصة بكشفه لمكائد اليهود ودهائهم فقد أرادت إحدى النساء التي توسم فيها أنها من اليهود أن تعجزه أمام خطيبها الجزائري وبذلك تضمن أبعاده عن التأثير فيه فكريا فسألته: ما هو الله...؟، فأجابها على الفور – وقد أدرك مرادها – : (الله هو السبب، بلا سبب ، لكل الأسباب) وبذلك افشل خطتها.(93)

3- بُعد النظر : لقد كان لدقة ملاحظته وتحليله للظواهر الاجتماعية وللأحداث السياسية وتتبعه لتطوراتها . دورا في بعد نظره وتنبؤه بأحداث أثبتت الأيام صحتها مما يدل على فكره الاستراتيجي من ذالك انه كان يرى من خلال ما يقوم به اليهود أنهم سيستولون على العالم(94).... وهو ما نراه ونلمسه اليوم من سيطرة لليهود على أجهزة الإعلام العالمية والاقتصاد الدولي وبالتالي تمكنهم من توجيه الثقافة والفكر .

كما حلّل – رحمه الله – آليات الصراع الفكري التي اعتمدها الخبراء المختصّون في البلاد المستعمرة ، وتتبع المراكز الراصدة لكل تحرك يتقدم منه خطر على هيمنة الفكر الغربي ، وهو ما تصدقه الأحداث ويجد مبرره من ملاحظات مالك نفسه،ويرد على أولائك الذين سمحت لهم أنفسهم اتهام مالك بالشك المرضي أو الإصابة بالوسواس ....ومن ذلك أيضا استشرافه للاتجاه نحو أمركة شاملة وان الحضارة تنزح نحو العالمية وتوقعه لسيطرة عالمية لما يسميه الأقانيم الثلاثة ، المرأة ، الدولار واليهود.(95)

ثالثا)– العوامل المؤثرة في ثقافته:

نشير إلى أهم ما أثّر على مالك بن نبي كأحد ابرز مفكري العالم الإسلامي وساهم في توجيهه الفكري. وهي تتمثل في عوامل عديدة أهمها:

---

(91) – المذكرات ، ص 274 .

(92) – أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 7 ، ط 1 بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1998 ، ص 218 .

(93) – نفسه ، ص 326 ، 327 .

(94) – نفسه ، ص 224 .

(95) – المذكرات ، ص 40 ، 41 ، 42 .

1- أسرته المتدينة المحافظة: حيث نشأ في أسرة فقيرة متدينة غرست فيه منذ الصغر أخلاق وفضائل الخير والصلاح، وقد ساهمت أمه وجدَّته بدورٍ هامٍ في ذلك(96) ، وكان لحكاياتها عن جرائم الاستعمار الفرنسي دورا كبيرا في تفتح ذهنه عن خطورة الوضعية التي عليها بلاده، وما يتطلب منه ذلك من استعداد وتحمل مسؤولية المستقبل.

كما كان لزوجته الفرنسية خديجة دورا هاما في إدراكه لبعد حضاري هام في الثقافة الغربية، وهو بعد الجمال أو ما يسميه الذوق الجميل ، وتجلى في التنظيم والتناغم الذي كانت تحرص عليه هذه المرأة في داخل البيت الأسري المواضع في إحدى نواحي باريس ،وهو ما يعتبره عنصرا أساسيا من عناصر الثقافة فيما كتبه فيما بعد.

2- تيار الفكر الإصلاحي: تأثر مالك في التوجيه الفكري بأساتذته من علماء التيار الإصلاحي، وخاصة أستاذ التوحيد والسيرة الشيخ (المولود بن الموهوب) والذي كان يركز على إصلاح التعليم وربط النهضة ببناء الإنسان وكذلك جهود الشيخ العلامة (عبد القادر المجاوي) والشيخ(صالح بن مهنا) وما قام به من دور بارز في محاربة فكرة الخرافة والشعوذة والتركيز على بعثا لنفوس من نومها وإرشادها إلى وجوب العمل والجد مع تنبيهها إلى خطورة المسؤولية الملقاة على عاتقها ، وقد جاء رائد الإصلاح في الجزائر (عبد الحميد بن باديس) ليعطي لذلك بعد العمل المؤسسي من خلال تأسيس جمعية العلماء المسلمين ومن خلال الخطب والمحاضرات والإعلام الصحفي عبر جرائده المشهورة وذلك ما ساهم في بث روح الوعي الوطني والديني وإيقاظ النائمين.(97)

وكان مالك يعترف بفضل دروس الشيخ(المولود بن الموهوب) وأستاذه الشيخ (بن العابد) الذي انقذه من اغواءات الفكر المادي (98) ، وقد كانت صرخات (ابن الموهوب) في قومه ودروسه في الفعالية ذات تأثير كبير على مالك بن نبي وخاصة تلك الدروس الحية في دحض الفكر الخرافي وترهات رجال الطرق السلبية، دون أن ننسى ما قام به بعض الأئمة من جهود إصلاحية كبيرة في محاربة البدع وبعض العادات السيئة تحمل نفحة الإصلاح الشرقية ، وهذا أثناء طفولة مالك بن نبي والتي يذكر صفحات منها في مذكراته(99)، وهذا لا يعني انه لم يتأثر ببعض أساتذته الفرنسيين ، والذي يذكر منهم (بوبريتي bobreiter) الذي استفاد منه منهج التفكير الديكارتي. وكذا توجيهاته فيما يطالع من كتب. كما كان لصديقه حموده بن الساعي تأثير في توجيهه نحو دراسة مشكلات العالم الإسلامي فيما بعد.

3- كثرة مطالعته المزدوجة: كان مالك بن نبي شديد الشغف بالقراءة ومطالعة الصحف وهذا ما أفاده ثقافة واسعة، لقد كان أول اتصاله بالقران الكريم حيث كان يتردد على الكتاب في الصباح الباكر وقبل الساعة الثامنة موعد التحاقه بالمدرسة الفرنسية، وبعد اتساع مداركه بدا يقرأ بالعربية والفرنسية حيث كان يقرأ صحيفة (الإقدام) التي كان يصدرها الأمير خالد، وصحيفة (الراية)، وصحيفة (العصر

---

(96) – يذكر أن أمه اضطرت أن تدفع لمعلمه القرآن بدل المال سريرها الخاص ، انظر المذكرات ، ص 19 .

(97) – مالك ، شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي،، د ط . دمشق : دار الفكر ،1406هـ،1986م، ص 23 ، 24 .

(98) – المذكرات ، ص 66 .

(99) – نفسه ، ص 78 ، 79 ، 80 .

الجديد) المتخصصة بشؤون العالم الإسلامي، وقد كان لإقدام تأثيراً كبيراً عليه حيث كانت تنشر الوعي حول ما يعانيه الشعب من قهر واستغلال ففتحت عينيه على واقع أشد مرارة، إضافة إلى صحيفة (الإنسانية) الشيوعية التي كانت تقوم بنفس الدور.(100) وكان يطالع مجلة (الأخبار الأدبية Nouvelle letteraire) ومجلة (كونفيرانسيا Conferencia) والتي تعرّف من خلالها على (طاغور) الذي أعطاه كما يقول، بعد الفيدا Des vedes (101)

أما مجلة (الشهاب) الإصلاحية فقد كانت تجدد فيه الأفكار الإصلاحية خاصة بعد انتقاله إلى (أفلوا) ليعمل عدلا بها وربما يكون هو أول من نقلها إلى هناك.

كما قرأ مالك ابن نبي بالفرنسية كتاب س(الإسلام بين الحوت والدب- L'islam entre le baleine et l'ours ل اوجين يونغ Eugene young) وعدة كتب أخرى بالفرنسية يبدوا أن الأستاذ(بوبريتي) قد وجهه لقراءتها (102)، وفي المقابل كان يقرأ بالعربية أيضا ما يشده نحو الثقافة الأصلية ويفتح أفق وعيه الديني والسياسي فقرا (رسالة التوحيد) لمحمد عبده ، كما قرأ (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في المشرق) لأحمد رضا كما كان يقرا الشعر الجاهلي خاصة شعر امرئ القيس وعنترة بن شداد كما قرأ شعر الفرزدق والأخطل وأبي نواس . ومن المحدثين قرأ شعر حافظ إبراهيم ، الرصافي وجبران وإيليا أبو ماضي، كما قرأ للمنفلوطي النظرات والعبرات .

وكان قد قرأ كتاب (في ظلال الإسلام الدافئة A L'ombre chaude de l'islam) الذي أبكاه، كما طالع كتاب الكواكبي (أم القرى) وأتم قراءته في ليلة واحدة <<وكان تأثير هذه المطالعات يزداد في نفسي رسوخا >> كما يقول(103)...أما في الجانب الفلسفي فقد قرأ ل(كوندياك Condiallac) وقرا كتاب (كيف تفكر؟)ل(جون ديوي) مما وضع عقله وأفكاره أي ثقافته باتجاه محدد .كما قرأ لنيتشه (هكذا تكلم زرادشت) واطلع على دراسات (آرنولد توبيني) و(هرمان دي كسرلنج) و(شبينفلر) حول فلسفة الحضارة، وكان يستعير كتبه من مكتبة المدرسة أو يقتنيه من مكتبة النجاح أو من إحدى المكتبات الفرنسية الصغيرة، كما قرأ في التاريخ (مروج الذهب) للمسعودي وأطالع على مقدمة ابن خلدون في ترجمة فرنسية(104). وكان لابن خلدون تأثير كبير جدا على توجهه الفكري فيما بعد.

---

(100) – نفسه ، ص 93 .

(101) – نفسه ، ص 91 .

(102) – نفسه ، ص 64 ، 65 .

(103) – المذكرات ، ص 66 ، 68 ، 87 ، 88 .

(104) – المذكرات، ص 113 ، 114

ونستخلص من ذلك أن مطالعة الصحف غرست فيه النزعة الوطنية ،ومطالعاته للفكر الغربي نمّت فيه المنطق والمنهج العلمي والنزوح نحو الفعالية أما مطالعته للفكر العربي الإسلامي فقد حصنه هذا الفكر المادي وغذت قلبه وروحه .....كل ذلك أهّله لأن يصبح كاتبا ومفكرا مختصا في تحليل مشكلات العالم الإسلامي ومعالجتها تحت عنوان عام هو **مشكلات الحضارة**.

4- معايشته للمجتمع الفرنسي: في هجرته إلى فرنسا واستقراره هناك مدة طويلة من الزمن أمكنه من معاينة كثير من الظواهر الاجتماعية التي أثرت أيما تأثير في بلورة اتجاهه الفكري. لعل أهمها:

– الفعالية والمنطق العلمي: كان انخراطه في جمعية (الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين) وهو نادكانت شؤونه تدار طبقا لضرورات شباب يدرس أو يعمل بعيدا عن بيوت الأهل، بدافع الحاجة والعوز لكنه فتح أمامه المجال ليكتشف نمطا من العلاقات الاجتماعية جديد، أهم ما يتّسم به: التسامح وعدم التعصّب و التنظيم ، التعاون والتعاضد بين إفراده، رغم كل الفوارق الاجتماعية والثقافية مما جعل مالك بن نبي يندهش من هذه المفارقة بين سلوك الفرنسي في مجتمعه وسلوكه حين يمتطي الباخرة إلى الجزائر،(105) وكان مالك بن نبي يدين لهذه الجمعية بتكامل في جانبه الروحي ، ولم تزده إلا تمسكا بعقيدته الإسلامية على عكس ما كان يهدف إليه القائمون على هذه الجمعية ، كما انه أدرك قيمة ما يسميه الفعالية في حياة أعضاء جمعية إلى درجة انه كان يسعى للجمع يين الطلبة المغاربة في الحي اللاتيني وأعضاء هذه الجمعية ليتعلموا منهم دروس الفعالية.(106)

وزادت قيمة الفعالية في ذهن الطالب الشاب وهو يلاحظ سلوك الفرنسي الذي يحرص على عدم تضييع الوقت إلا فيما ينفع بما يخصصه من وقت لترقيع الأشياء أو صناعتها لنفسه، خلافا لقرينه في الجزائر، ولا شك أن هذا نتاج التربية العملية التي يتلقاها الطفل الفرنسي في صغره حتى من خلال الهدية التي يتلقاها من أهله، وما تتطلب من جهد عملي في التفكيك والتركيب.(107)

وكانت المقارنات بين خصائص مجتمعه الذي عايشه طفلا وشابا وبين ما يراه من ظواهر في المجتمع الفرنسي تشخّص أمام ناظريه نقاط الضّعف الأساسية التي قعدت بالمجتمع الجزائري في زاوية تخلفه بعد أن أسلمته فريسة للاحتلال.

–العلمية: إذا كانت وحدة الشبان المسيحيين قد عرفت مالك على جانب خفي من جوانب الحضارة الغربية، كما ذكرنا سابقا فان دراسة مالك لسلسلة الأب (مورو) <<لتفهم>> والتي انكبّ على دراستها استعدادا لدخول مدرسة اللاسلكي قد فتحت عينيه على مجتمع يخضع فيه كل شيء لمقياس الكمي والكيفي، يتسم فيه الفرد أكثر ما يتسم بميزات الضبط والملاحظة، وأدرك في تلك اللحظة أن العلم مفتاح الخلاص(108).

---

(105) – المذكرات ، ص 210 214

(106) – المذكرات ، ص ص 211 ، 222 ، 227 .

(107) – نفسه ، ص 221 ، 222.

(108) – نفسه ، ص 218 ، 219 .

وزاد اعتقاده أن مفتاح الخلاص وسبيل الإنقاذ لتخلف المجتمع الإسلامي هو العلم والتقنية وقد كان بورشته كعابد ملهم في معبد هذه الحضارة الآلية التقنية ولم تكن تخلو من بواكير تفكير اجتماعي بما يحمله من هواجس التغيير الاجتماعي تغامر عقله ووجدانه(109).

ولا ريب أن مالك كان يدرك أن تظافر الفعالية من جهة السلوك الاجتماعي، والعلمية من جهة التفكير الإنساني كفيلان بتحقيق النهضة والتغيير الاجتماعي.

–الجمالية: ذكرنا فيما سبق ميل مالك بن نبي منذ طفولته المبكرة للنظافة حتى صار مضرب مثل معلمته الفرنسية لتلاميذها ، وقد شده المجتمع الفرنسي إلى ما فيه من تقدير لقيم الجمال وتقدير للفن وهو ما يعبر عنه الذوق الجمالي كأحد خصائص الثقافة الغربية ، وأول ما تأثر به في ذلك سلوك زوجته الفرنسية كونها: فنانة في مجال فن التجميل بما تقوم به من تنظيم البيت وترتيبه وما تصنعه من أدوات جميلة وهو ماساهم في تطور مالك النفسي وجعله اشد ما يكون من كل ما يسيء بذوق الجمال وأضاف إلى استعداداته النظرية في ذلك أفكار اجتماعية واضحة(110).

- **نشاطه في الدعوة والإصلاح:** كان الهاجس الأول لبن نبي هو التفكير الجاد المنظم الموضوعي في مشكلات العالم الإسلامي والبحث في إيجاد حلول منطقية ممكنة لها،للخروج بالأمة الإسلامية من وهدة التخلف والانحطاط ...

فرغم انشغاله في حل المشكلات الرياضية والتي كانت تأخذ من جهده ووقته الكثير ،إلا أن مالك لم ينس مشكلات العالم الإسلامي خاصة بعد اندماجه في الحي اللاتيني حيث كان يجتمع بالطلبة والمثقفين من أبناء المستعمرات، ومنهم دعاة الإصلاح من طلبة شمال إفريقيا الناشطين في العمل السياسي والتحريري وهنا تعرف بصديقه(حمّودة بن السّاعي) طالب (السوربون) الذي كان يعد رسالة دكتوراه حول الغزالي.

وكان لهذا الطالب تأثيراكبيرا عليه حيث كان له الفضل في توجهه الفكري بما دفعه للتخصص في دراسات مشكلات المجتمع الإسلامي.(111)

لم تكن الحياة في باريس سهلة ومأمونة العواقب من الناحية الأخلاقية، خاصة بالنسبة لشاب أعزب، فهداه الله إلى فتاة فرنسية هداها الله الى اعتناق الاسلام ، سميت خديجة، وكانت نعم الزوجة الصالحة المجتهدة والتي تعرف من خلالها على جانب مهم من جوانب الثقافة الحية، وهو التنظيم وذوق الجمال، وبذلك وفرت له الجو المنظم الجميل الهادئ ليفكر مع صديقه محمود في مشكلات العالم الإسلامي. في الحي اللاتيني كانت وفود الطلبة العرب تفد تباعا، وبدأ جو الاختلاف والصراع السياسي يطغى، حيث المطارحات السياسية، فانشق

---

(109) - نفسه ، ص 219 ، 221..

(110) - نفسه ، ص 273 ، 274 .

(111) - ن،م ، ص 235 .

الطّلبة قسمان: فريق (الواقعيين) الذين يبدون استعدادا للتفاهم والتواطؤ مع الإدارة الاستعمارية ، وفريق المثاليين(أو المحافظين) ومنهم مالك بن نبي وحمودة بن الساعي وغيرهم وهم المتشبعون بالروح الدينية الرافضون لأي تواطؤ .(112)

وكان الاختلاف فكريا ثقافيا يتمظهر في المحاضرات والمحاضرات المضادة، فكان لمالك دورا هاما ،إذ ألقى محاضرة يدل عنوانها على وعي ديني وسياسي كبير صاغه على شكل سؤال:" **لماذا نحن مسلمون** ؟ "..كما كان لصديقه فيما بعد محاضرة حول : " القرآن والسياسة "،كان لهما صدا طيبا في أوساط الطلبة، وكان النقاش لا يفتأ يحتدم بين الاتجاهين ، وكان لنشاط مالك بن نبي أهمية كبيرة اهتمت لها الأوساط الأمنية الاستعمارية (من خلال أعينها الساهرة)، إلى درجة أن الشرطة حققت معه ، وتلقى دعوة من المستشرق المشهور (ماسنيون) رفضها مالك.(113).

في عام 1932م تعرف عن قرب على (المهاتما غاندي)، وأعجب بأفكاره التحررية المشبعة بالروحية الهندية ،كما تعرّف على نائب وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة فيما بعد السيد (فريد زين الدين) ومن خلاله تعرف على فكر(شكيب ارسلان) الإصلاحي، وكان عضوًا معه في جمعية سرية تعمل من اجل الوحدة العربيّة.(114)

في الحي اللاتيني الذي لا يزال ساحة للعمل والنشاط السياسي الذي لا تغفل عنه أعين وآذان أجهزة متخصصة للرّصد والعدّ، كان يلاحظ نشاط زعيم الحركة الوطنية الجزائرية (مصالي الحاج) الذي أراد بعث وتزعم منظمة شمال إفريقيا، لكنه لم يكن متفقا معه ولا مع أسلوبه في العمل السياسي المعتمد أصلا على التظاهر والمظاهرات والخطب الحماسية زد على ذلك نفوره مما تميز به الزعيم من كاريزميّة وتسلّط.لأن مالك كان يؤمن بالتغيير المتدرج الهاديء المدروس بدقة وموضوعية ، وهو أشد ما يكون نفورا من أسلوب التحريض والصخب والغوغائية الانفعالية(115)

كان مالك–رحمه الله – مقتنعا تماما أن **التغيير الاجتماعي أصل وأساس كل تغيير**، ولذا كان منشغلاً ببث روح الوعي الفكري والثقافي في نفوس الطلبة وهو ما يسميه بالفعالية وهي جوهر كل نشاط حضاري، اقتنع بذلك من خلال ما عايشه في الجمهورية الصغيرة التي تمثلها منظمة الوحدة المسيحية للشباب الباريسيين، وملاحظاته الدقيقة لحياة المجتمع الفرنسي سواء من خلال زوجته (خديجة) أو أمها المرأة الريفية النشطة بـ(دروكس) أو من خلال مظاهر الدقة والتنظيم التي يلاحظها هنا وهناك في المجتمع الفرنسي. وفي الجهة المقابلة كان لا

---

(112) – مذكرات شاهد للقرن ، ص 237 .

(113) – نفسه ، ص 239 .

(114) – نفسه ، ص 353 .

(115) – نفسه ،ص ص 245 ، 249 .

يفتأ يبدي نفوره مما يسميه مرض الهذر والثرثرة وشهوة إلقاء الخطب والتظاهر والمطالبة بالحقوق كأسلوب فج للكفاح السياسي التحرري. ولم يمنعه ذلك من التحمس لفكرة الوحدة المغربية حتى أطلق عليه في الحي اللاتيني " زعيم الوحدة المغربية ".(116)

في صيف عام 1932م عاد إلى الجزائر لزيارة أهله فوجد موجة الفكر الإصلاحي عمّت أرجاء البلاد تمثلت مظاهرها في تبرع الأهالي الفقراء لبناء المساجد والمدارس الإصلاحية...وظل ينتقل بين الجزائر لزيارة أهله وفرنسا حيث إقامته إلى أن تخرج كمهندس كهرباء عام 1935م ،حيث بدا يفكر بالسّفر إلى الحجاز ليقيم مشاريع عمل هناك لكنه فشل ،ففكر بالسفر الى اليابان ،أفغانستان لكن الفشل كان حليفه في جميع محاولاته ،فبدا يحس بخيوط عنكبوتية تضعها أجهزة مختصة في الصراع الفكري، مسلطة على أبناء المستعمرات والمثقفين منهم على وجه الخصوص (117)،..

فلا جرم أن وقفت هذه المراصد في وجهه حتى وهو يحاول القيام بمشاريع تربوية تعليمية ،مثل تأسيس معهد بقسنطينة لتحضير الطلبة الراغبين في الالتحاق بمعهد الهندسة إذ قوبل طلبه بالرفض ،وحين أسس عام 1938م بمرسيليا مدرسة بسيطة لمحو أمية العمال المغاربة منعته من التدريس بمبررات واهية سرعان ما كشف الحقيقة وهي أن اوامرًا هبطت من فوق بغلق المدرسة.(118)

ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل وصلت إلى حد تلفيق تهمة له بالعمل لصالح النازية فأودع السجن بشارتر(غرب باريس) في أوت عام 1944م إلى أفريل 1945م ، وفي السجن كتب "الظاهرة القرآنية"(119)، وهو كتاب أبدع فيه مالك بن نبي في ربط التفسير القرآني بالجانب الاعجاز النفسي، يثبت فيه صحة المعاني والتركيبات القرآنية وفساد غيرها من ادعاءات أهل الكتاب ،وهو الذي كان له تأثير واضح على كثير من الفرنسيين أنفسهم الى درجة انه كان ممنوعا مطالعته على القساوسة خوفا على عقيدتهم.(120)

وبعد خروجه من السّجن لم تفتر عزيمته فواصل نشاطه في العمل السياسي والفكري بإلقاء المحاضرات بنادي المؤتمر الجزائري الإسلامي، وبعث رسالة إلى حزب الأمة بزعامة مصالي الحاج سماها " الخطوة الجزائرية"(121) وأصدر عددا من الكتب تضمنت رؤيته الفكرية لمشاكل العالم الإسلامي التي لخصها في مشكلة كبرى جامعة هي(مشكلة حضارة)، فحدد لها: شروطا للنهضة (صدر عام 1948) ورسم لها

---

(116) – نفسه ، ص 240 .

(117) – نفسه ، ص 301 و 348 .

(118) – نفسه ، ص 416 .

(119) – نور الدين بوكروح ، الفكر الاقتصادي عند مالك بن نبي ، الشروق العربي ، الملحق الثقافي ، الجزائر : عدد 15 ، 11 نوفمبر 1993 ، ص 4 .

(120) – عبد السلام الهراس ، ذكرياتي مع مالك بن نبي في مصر ، مجلة الفيصل ، السعودية : العدد 196 أفريل 1993 م، ص 16 .

(121) – مالك، المذكرات ، ص 425 .

وجهة العالم الإسلامي (صدر عام 1954)، ووضع لها فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ (صدر عام 1956)، ثم توالى إنتاجه الفكري من خلال كتب مطبوعة أو أمقالات منشورة.

نشاطه الفكري والإصلاحي في القاهرة :

عام 1956م انجز مالك بن نبي كتابه (فكرة الإفريقية الأسيوية على ضوء مؤتمر باندونغ) وسافر إلى مصر التي كانت آنذاك تشكل أمل المثقفين من أبناء المستعمرات الرّاغبين في التحرر، كما حملته ثورة 23 يوليو من شعارات التحرير والوحدة، خاصة والثورة الجزائرية في أوجها وقد كان يرغب في العمل في جبهة القتال كممرض وليتمكن من كتابة تاريخ الثورة كشاهد عيان، وكتب بذلك رسالة إلى ممثلي جبهة التحرير بالقاهرة مؤرخة في 1 سبتمبر 1956م لكن طلبه أهمل مما جعله يمتعض ويتأسف(122)... ورغم ذلك لم تفتر عزيمته فنشر رسالته : " النجدة ...الشعب الجزائري يباد " عام 1957 بالقاهرة.

عرف الأستاذ مالك بن نبي نشاطا واسعا في صفوف الطلبة الذين التفّ حوله العديد منهم في حي (الدّقي) حيث كان يسكن، يلقنهم أفكاره ويناقشونها في شبه ندوات يعقدها لهم، وقد اشتهر منهم من حاملي فكرة المحامي اللبناني وصاحب حقوق نشر فكره فيما بعد(عمر كامل مسقاوي) والأستاذ المغربي (عبد السلام الهراس)، والشيخ(ناصر إبراهيم الصالح) القاضي الشرعي بطرابلس لبنان... (123)كما تعرف إليه الأستاذ (عبد الصبور شاهين) مترجم كتبه.

في مصر أتقن اللغة العربية وصار يكتب بها حيث كتب بها الصراع الفكري في البلاد المستعمرة وكان متأثرا بما حدث له في فرنسا ومصر من مضايقات كبيرة، وقد اطلع أنور السادات على كتابه شروط النهضة وأعجب بأفكاره وعينه مستشارا للمؤتمر الإسلامي بالقاهرة عام 1956م(124) وكان يساهم في بث فكر التغيير الاجتماعي ضمن إطار مشكلات الحضارة عبر محاضراته في المؤتمر والنّدوات.

العودة إلى الوطن:

بعد طول غياب عاد مالك إلى الجزائر عام 1963م يحدوه أمل كبير في رسم معالم بناء مجتمع متحضر، فعيّن مديرا للتعليم العالي، وكلّف بإنشاء مركز للتوجيه الثقافي، ولكن الظروف الصعبة وخاصة البيروقراطية المتفشية في الإدارة وهذا ما لاحظه من تسيّب ولامبالاة بالتوجيهات الثقافية مما حال دون مواصلته العمل في هذا الإطار الرسمي(125)، فانتقل من وظائفه عام 1967 م ليعمل بحرية في نشر

---

(122) – مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، إرهاصات الثورة ، ط1، الجزائر: دمشق :دار الفكر،ص19.

(123) – عبد السلام الهرّاس ، م. س ، ص 18 ، 19 .

(124) – عبد السلام الهراس ، م .س ، ص 18 ، 19 .

(125) – مالك بن نبي ، من أجل التغيير ، ط1، دمشق : دار الفكر ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، 1998 م ، ص 42 .

فكر الوعي الحضاري وبث قيام الثقافة الحية بما يسمّيه الفعالية في العمل والسلوك أساس كل مشروع للتغيير الاجتماعي ، فكان يعقد في بيته ندوة للتوجيه الفكري للتصدي لمعركة ما بعد الاستقلال، ويا لها من معركة كبرى تتطلب كل يقظة وحرص... وقد كان يؤمن أن التغيير أمر جوهري وضروري ويقوم على ما يقوله يوما لطلبة يدرسون الكهرباء : << **إن وظيفة المسلم تجاه مجتمعه هي مثل وظيفة المحرك ، يمكن تحويل طاقة كامنة في القران و بعثها في المجتمع** >>(126)، كان لجهده التوجيهي أثر عظيم في المجتمع الجزائري وخاصة في الوسط الطلابي الذي كان ينوء بتأثير كبير للايديولوجيا الماركسية، وقد أثمرت هذه الجهود في الحد من هيمنة هذا التيار.(127)

وفي عام 1972م أدّى فريضة الحج وفي طريق العودة أقام بدمشق وحاضر فيها عن "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين "، طبعت فيما بعد في كتاب صغير وشكّلت أفكاره فيه وصيته الاخيرة للشباب المسلم.

في عام 1973م اشتدّ به المرض ، أجريت له عملية البروستات بباريس ،،،لكنّ القدرشاء أن يتوفى –رحمه الله – يوم الأربعاء 4 شوال 1393هـ الموافق ل31 اكتوبر1973م.

– إنجازات مالك بن نبي في خدمة الدين والوطن:

إنصبّ اهتمام الرجل بالقضايا الفكرية تحليلا وتصحيحا ، وهو من الناحية المنهجية في الدراسة وهو من الناحية التحليل التاريخي يمكننا اعتباره إبن خلدون عصره،فقد حاول البحث في قوانين الاجتماع التي تحكم سيرورة المجتمع؛ لرسم منهج لفهم ظاهرة التخلف الحضاري وإحداث التغيير الإجتماعي الضروري للنهضة والتقدم،،

وفعلا فقد رسم لنا مالك منهجا موضوعيا في التحليل والتركيب الفكري، وفي نقد الظواهر الاجتماعية المختلفة بما يمكن الدعوة الإسلامية فعلا من تجنب الكثير من المطبّات وتفادي الكثير من المنزلقات التي تهددها. ،،،وقد حذر مالك من كثير من الأخطاء التي وقعت فيها الكثير من حركات الدعوة في هذا العصر.

وفي رسالته الأخيرة:" دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين"(التي اعتبرت كوصية أخيرة لأمته)يؤكد مالك على الفراغ الروحي والرّسالي الذي تعانيه البشرية و يلزم المسلم ملؤه ، بدعوة الحق تحقيقا لأمانة الشهادة التي حققا الرسول في أمته:" وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيدا عليكم"،ولا يتحقق ذلك إلا بتحقيق المسلم لحضوره العالمي أي معنى تقدمه :"لأن فاقد الشيء لا يعطيه"، ولا معنى لشهادته على عالم يقف فوقه،أي يتفوق عليه حضاريا،،،،وهو ما يستوجب حركة فاعلة للنقد الذاتي يشخص فيها المسلم أمراضه الداخلية(أزمة القابلية للاستعمار)ثم يحاول التخلص من سلبيات ميراث المجتمع المتخلف(العطالة

---

(126) – محمد مصطفى : << رجوع التذكير أو تاريخ مرحلة دعوية حامسة >> ، الجزائر : مجلة التذكير ، عدد 06 فيفري ، ص 37

(127) – كان لمالك تجربة سابقة في إنقاذ صديقه عبد العزيز الخالدي الذي وقع تحت تأثير الفكر الشيوعي وإعادته إلى أصالته مستعينا بفكر نيتشه ، أنظر المذكرات، م، س، ص 346 .

والتبطل والسلبية) واستبدالها –ثمثّلا في الذات – بقيم الفاعلية والحركية الايجابية لتغيير التاريخ، وهو أمر ليس بالمستحيل رغم ما يكتنفه من صعوبات:" وما ذلك على الله بعزيز"....

وقد اتبع مالك طريقة تأليف الكتب لنشر فكره فكتب تحت عنوان مشكلات الحضارة أزيد من عشرين كتابا ،أشهرها ما يمثل أسس فكره وهي: شروط النهضة ،وجهة العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة...كما اهتم مالك بإلقاء المحاضرات وعقد الندوات لتبليغ فكره النهضوي ،وفي سبيل تبليغه للطلبة ، الذين كان يكن لهم اهتماما خاصا ،كان يعقد ندوة فكرية في بيته، سميت بندوة مالك بن نبي،،،كما أنه أرسى دعائم ملتقيات الفكر الإسلامي الدولية كل سنة ، تجمع نخب العلم والمعرفة من مختلف أرجاء العالم الاسلامي لمناقشة موضوع معين....

لفكر مالك بن نبي تأثير واسع في أنحاء العالم كله ، وقد عُدّ فكره من أسس برنامج المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن،كما اعتمدته ماليزيا ضمن التوجيه التربوي للتقدم والنهضة الماليزية الحديثة.كما خلف مالك تلاميذا لفكره في كافة أنحاء العالم منهم: جودت سعيد، خالص جلبي، محمد محمود سفر، سيد دسوقي حسن، عمر مسقاوي،علي القريشي، زكي الميلاد....الخ، وأكاديميا قُدمت العشرات من الأطروحات الجامعية بين ماجستير ودكتوراه حول جوانب مختلفة من فكره.....

المحاضرة 15

الشيخ الداعية أحمد سحنون

نشأته:ولد الشيخ أحمد سحنون عام 1907م،بقرية من قرى الزاب الغربي بولاية بسكرة،وتابعة لادارة طولقة،نشأة يتيم الأم ،تولى أبوه رعايته وكان معلما للقرن ، حفظ القرآن وهو ابن 13سنة، وتوقلى تعليم الاطفال مع والده.

تكوينه العلمي:درس منذ صغره علوم الشريعة على يد الشيخ خير الدين عالم الزيتونة المعروف،،كما درس في زاوية علي بن عمر بطولقة،من شيوخه محمد الدراجي،عبد الله بن مبروك،،،

منذ صغره كان أحمد سحنون مولعا بمطالعة الكتب في الشريعة والأدب والشعر،128

إلتحاقه بالجمعية:

مكث ببلدته حتى زارهم الشيخ (فرحات بن الدراجي) وكان مدرسا بالعاصمة بمدرسة الشبيبة الاسلامية فأعجب بعلمه وشخصيته،فاصطحبه معه للتدريس بها عام 1936م، وهنا توطدت علاقته برجال الجمعية وخاصة بمؤسسها العلامة إبن باديس ،الذي

128- الاخضر رحموني، "رحيل حسان الحركة الاصلاحية بالجزائر: العلامة أحمد سحنون" الجزائر: البصائرالعدد 170،عام 2003م،ص 8

استفاد منه كثيرا، وأصبح منذ ئذ من رجال الجمعية النشطين، يساهم في الخطابة بالمساجد ويعلم ويحاضر وذلك بدافع من دينه وحبه لوطنه،.129

– **آثاره:** إهتم الشيخ بنشر مقالاته المتنوعة في صحف الجمعية خاصة الشهاب والبصائر ، منها: ديوان شعر ،طبع عام 1977م يضم حوالي 196 قصيدة.

كتاب :" دراسات وتوجيهات إسلامية"طبع عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع عام 1981م ثم عن المؤسسة الوطنية للكتاب ، وهو مجموع المقالات التي كان ينشرها في البصائر .

ديوان شعر مخطوط بعنوان: تساؤل وأمل، وكتاب بعنوان :"كنوزنا،يشمل على عيون من التراث العربي وتراجم بعض الصحابة،كما ترك الجزء الثاني من ديوان شعر كتبه بعد الاستقلال 1982، وهو تحت الاقامة الجبرية.

وقد اهتم بشعره مكثير من الباحثين والدارسين فقدم الاستاذ أحمد زعينة أطروحته بعنوان : شعر السجون في الجزائر62/54م،،،وأعد الاستاذ محمد عبد الهادي رسالة دكتوراه حول: حياة واعمال الشاعر أحمد سحنون"،،وقد لقبه عبد الرحمن شيبان: حسّان الحركة الإصلاحية بالجزائر،،،،

– **جهوده في الدعوة والاصلاح**: التحم مع رجال الجمعية منخرطا في جهودها الاصلاحية مربيا مهذبا،في مدرسة التهذيب الحرة في بولوغين،(1947م) ، ونظرا لجهوده وكفاءته وإخلاصه في الدعوة عين مديرا لها بعد عام واحد(130).

كما كلفته الجمعية بالخطابة والتدريس بمساجد العاصمة عام 1949م فكان يرشد ويعظ الناس بخطب مفوهة مؤثرة،،،

كما اختير في لجنة تحرير البصائر ضمن ثلة من رفقائه من العلماء ،

وفي المجال السياسي كان وهو إمام مسجد بولوغين يحث الشباب على ضرورة الاعتزاز بالماضي ،والرجوع الى الأصول لبناء النهضة ،ويستنهض هممهم لاستعادة الوطن السليب، وكان شجاعا في الحق لا يداري ولا يمالي،،،.131.وكان له دور كبير في نشر الوعي الثوري بين شباب الجهاد فيما بعد،،،بل وبلغت جرأته في الحق الى حد تكطوين تنظيم فدائي في مسجد بولوغين عام 1953م بالتعاون مع بعض الشباب المتحمس منهم مصطفى فتال.وقد كان هذا الاخير من أشجع الفدائيين الثوريين ، وهو ما يرد قطعا على من يزعم أن جمعية العلماء لم تشارك في ثورة التحرير،،ن،،،،وخير مثال ما تعرض لخه الشيخ احمد سحنون من اضطهاد وسجن الاستعمار الفرنسي(استمرت

129- أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2،ص9

130- -خالد صلاح الدين، في ذكرى رحيل العلامة أحمد سحنون، عميد الصحوة ابلاسلامية في الجزائر،أنظر المقال مقال في www.chihab.com:

131-أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية،م س، ص9 ،10

فترة سجنه ثلاث سنوات من عام 1956) الذي ما كان يخفى عليه الدور التحرري للشيخ أحمد سحنون الذي نجى بأعجوبة من محاولة إغتيال .

وكان ينظم شعره الديني التحرري وهو في السجن،وفي سجنه قرأ في ظلا القرآن لسيد قطب،،ولما استيأست منه فرنسا حكمت عليه بالاعدام ، لكن إرادة الله ارادت له الحياة الى ما بعد الاستقلال ،

بعد الاستقلال عين إماما بالمسجد الكبير وعضوا بالمجلس الاسلامي الاعلى،وكان لا يداري أحدا يجهر بكلمة الحق وانظم ل"لجمعية القيم" التي أسسها الهاشمي التيجاني في 1963م،كا متداد لجمعية العلماء،لكن السلطة لم تتح له فرصة الدعوة، فاستقال من عضوية المجلس الاسلامي،واتجه للتفرغ للدعوة بالمساجد خطيبا واعضا رفقة صديقه عبدج اللطيف سلطاني،،

في 1982م حرر الى جانب صديقه الشيخ سلطاني بيان النصيحة يدعو فيه الى تطبيق الشريعة ، فوضعته السلطة تحت الإقامة الجبرية،،كما كان يحاول دائما كبح جماح الانفعالية والتسرع التي يقع فيها شباب الصحوة الاسلامية في الجزائر ،وكان داعية سلام لا يريد للشباب الاسلامي أن ينزلق في أتون فتنة تدفع ثمنها الصحوة الاسلامية ذاتها،،،لأنه يؤمن أن الدعوة لا تقوم إلا على الحكمة والموعظة الحسنة،،ولعل هذا منا جعله يقبل بترؤس :" رابطة الدعوة الإسلامية في الجزائر : كإطار يجمع جهودة أبناء الدعوة الإسلامية ، ويعمل على ترشيدها....

- **خصائص منهج أحمد سحنون في الدعوة:يمكننا استخلاص سمات الدعوة عند الشيخ فيما يلي:**

1-التأسيس العلمي:لا دعوة دون علم ؛إذ محال أن تنجح دعوة للحق يقودها جهال ،ولهذا كان الشيخ دائم التركيز في توجيه النصيحة لشباب الصحوة في طلب العلم الشرعي،وهي نفس النصيحة التي تلقاها من مرشد الأمة ،رائد النهضة : الإمام عبد الحميد بن باديس،رحمه ال وقد عرف عن الشيخ شغفه الشديد بالقراءة،،خاصة في فترة سجنه له ؛لأن الجهل لا يقود إلا إلى الضلال،،،والفساد في الأرض، ، وهو ما تثبته التجارب في كل زمان ومكان.ولم يتوان الشيخ في الحث على تعليم المرأة ،حتى تربي أبناءها على حب العلم ،،،(132)

2-الحكمة والموعظة الحسنة:يتناقض منهج الدعوة مع الهياج العاطفي وردود الافعال الانفعالية، وقد كان أحمد سحنون يحرص على لجم عواطف الشباب المتحمس بلجام العقل والمنطق ؛لأنه من مقتضيات الحكمة،،والبصيرة المأمور بها شرعا،،،ولذا كان ضد المظاهرات الصاخبة واتباع أسلوب العنف للوصول الى أهداف معينة...

3-الشجاعة في الحق:اتباع الحكمة والدعوة على بصيرة ليس معناه الجبن والخور،؛إذ ان النبي يعلمنا ،أنم الساكت على الحق شيطان أخرس، لكن قول الحق بشجاعة يكون بالحكمة وليس بالتهور والتعالي الاجوف الذي قد لا يخلو من هوى النفس والتعالي،،والمباهاة،،،وهو مكا كان الشيخ يدركه جيدا،،،كما يقول الشيخ القرضاوي:

132-أحمد سحنون، م،س، ص195، 196

" حب الظهور كم قصم الظهور؟؟!!".

4-ا للين والحوار الجاد: تقوم الدعوة على اللين وهو من مقتضيات الحكمة،ولم يكن أحمد سحنون في خطابه الدعوي شديدا بذيئا،،،لأنه يفقه قوله تعالى في وصيته لموسى واخيه حين أرسلهما لفرعون مصر:" إذهبا لفرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى"...كما كان يفضل أسلوب الحوار الجاد مع المخالفين ،ليقارع الحجة بالحجة ،وخاصة تجاه أصحاب العقول المشوشة ممن استهوتهم فلسفات التشريق أو التغريب،،،

5- التضحية في سبيل الدعوة : في مسيرته الدعوية لاقي الشيخ أحمد سحنون المتاعب الجمة، من اضطهاد وسجن وهو أمر طبيعي بالنسبة للدعاة المخلصين،والداعية الحق المخلص هو الذي يصبر ويحتسب الاجر عند الله.(133)

المحاضرة 16

من أعلام الدعوة والإصلاح بميزاب : العلامة الشيخ إبراهيم بيّوض

– مولده و نشأته:

هو الشيخ **ابراهيم بن عمر بيوض** ، ولد سنة 1313هـ / 1899 م في أحضان والدة من عائلة الحكم بالقرارة بولاية غرداية جنوب الجزائر، و والده يعد من أعيان البلد. دخل كتاب القرية فاستظهر **القرآن قبل سن البلوغ** . ثم أخذ مبادئ العلوم الشرعية و اللغوية على يد مشايخ القرارة المشهورين آنئذ الحاج ابراهيم لبريكي (ت:1911م)، الحاج عمر بن يحي أمليكي (ت:1921م)،و خاصة الشيخ العلامة أبو العلا عبد الله (ت:1960م).

– حياته:

حباه الله منذ الصغر مواهب جمة منها الذكاء الوقاد، و الحافظة القوية، و الفصاحة و البيان، و هو ما أهله رغم صغر سنه ليخلف شيخه الحاج عمر بن يحي في التدريس، و يتبنى الحركة العلمية، و النهضة الإصلاحية في القرارة . أصبح عضوا في حلقة العزابة ، و **هي الهيئة الدينية العليا في القرارة**، و ما لبث أن اعتلى منبر الوعظ بمسجدها. ثم انتحب رئيسا لحلقتها و هو في الأربعين من عمره. في 18 شوال 1343هـ/ 21 مايو 1925 م أسس معهد الشباب للتعليم الثانوي، و هو المعروف بمعهد الحياة ، و اتخذ له شعارا "'الدين و الخلق قبل

133)- يوم 4 سبتمبر 2008م نشرت يومية الخبر الجزائرية خبر إهداء مكتبة أحمد سحنون الضخمة الى المكتبة الوطنية بالحامة ليستفيد منها الباحثون،،،،

الثقافة، و مصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد"' و أصبح قبلة للطلاب من داخل الجزائر و خارجها تخرج منه المئات من طلاب العلم. المتخصصين في العلوم الشرعية و اللغوية. في سنة 1931 م شارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، و ساهم في صياغة قانونها الأساسي، و **انتخب عضوا في إدارتها الأولى، إذ أسندت إليه نيابة أمين المال** . في سنة 1937 م أسس جمعية الحياة بالقرارة المشرفة على التعليم الابتدائي و الثانوي، و المنتظمة والمشرفة على الحركة الفنية و الرياضية، و الجمعيات الأدبية بها، و ما تزال تؤدي رسالتها تلك حتى يومنا هذا. في سنة 1940 م حكمت عليه الإدارة الاستعمارية بالإقامة الجبرية داخل القرارة لا يبرحها، لمدة أربع سنوات، تفرغ خلالها لتكوين ثلة من الطلاب المتفوقين، أصبحوا من رجالات الأمة المحليين، و قادة الحركة الإصلاحية **بالجنوب الجزائري**. في سنة 1947 م دخل معترك الحياة السياسية، فطالب برفع حكم الإدارة العسكرية عن الصحراء و إلحاقها بالشمال. انتخب بالأغلبية الساحقة يوم 20 أبريل ممثلا لوادي ميزاب في المجلس الجزائري ، و أعيد انتخابه سنة 1951 م، فكان الصوت المدوي دفاعا عن مقومات **الشخصية الجزائرية** دينا و لغة. أصبح ما بين 1954 و 1962 م محور النشاط الثوري في ميزاب بعامة، و القرارة بخاصة، يعاونه في ذلك زملاؤه في الحركة الإصلاحية، و أبناؤه الطلبة. و قد وقف وقفة بطولية ضد مؤامرة فصل الصحراء عن الجزائر . في مارس 1962 م عين عضوا في **اللجنة التنفيذية المؤقتة** ، و أسندت إليه مهمة **الشؤون الثقافية** إلى يوم تسليم السلطة لأول حكومة جزائرية في سبتمبر من سنة 1962 م . في سنة 1963 م أحيى نشاط (مجلس عمي سعيد) **الهيئة العليا لمجالس عزابة** وادي ميزاب و وارجلان ، فانتخب رئيسا له إلى يوم وفاته.

الشيخ بيوض الداعية المصلح::

– في الميدان الاجتماعي:

كان المجتمع الميزابي في أوائل القرن العشرين يعيش تحت وطأة الحكم الاستعماري العسكري، ووطأة الفقهاء الجامدين أولئك يرهقونه بحكم مستبد وهؤلاء يعرقلون مسيرته بفكر متزمت ،مما أدى إلى ظهور سلبيات عديدة في جميع مجالات الحياة . وكان على العالم المصلح أن يواجه كل ذلك بحكمة وصبر ،فالناس أو بالأحرى العامة غير مؤهلة لتقاوم الحاكم الاستعماري ،ولا أن تجابه النفوذ الديني، وكان الشيخ **بيوض** ، العالم اليقظ، المتفتح على العالم الإسلامي من حوله يتابع بحرص دعوات الإصلاح التي أخذت ترتفع من هنا وهناك من أطراف العالم العربي ولا سيما حركة العلماء المصلحين في الشرق من أمثال الشيخ محمد عبده ،و جمال الدين الأفغاني ، و رشيد رضا ،و الكواكبي ، و شكيب أرسلان ، وغيرهم ممن أعجب **الشيخ بيوض** بمنهجهم، وتشرب أفكارهم من خلال آثارهم وكتبهم وقد جمعته الصدف ببعضهم مثل شكيب أرسلان الذي التقى به في الحج سنة 1929 فكان دائم الإشادة بفكره ومواقفه. وكان قد أحكم الصلات بينه وبين العلماء المصلحين الآخرين في محيط القطر الجزائري من أمثال المشايخ عبد الحميد بن باديس ، و البشير الإبراهيمي، و الطيب العقبي ، وغيرهم. وكانت خطته في هذا السبيل واضحة وهي التعاون الجاد لإحياء اللغة العربية لغة القرآن ، وتربية الناشئة الجزائرية تربية إسلامية صحيحة والوقوف صفا واحداً أمام مخططات الاستعمار الفرنسي الرامية إلى تفريق الشعب الجزائري على أساس المذهبية ،أو الطائفية ،أو الجهوية . وقد برز هذا التعاون في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مدارس تنتشر في كل أنحاء القطر الجزائري وتجلى دروس وعظ وإرشاد ،وخطط تفكير وتوجيه خطى المصلحين حولها كلما دعت الضرورة إلى ذلك .

– في الميدان السياسي:

نشأ الشيخ **بيوض** في عهد كانت الصحراء الجزائرية فيه تخضع لنير حكم عسكري فرنسي عتيد يعرقل أو يقضي علنا على كل ما من شأنه تقوية روح الدين الإسلامي ،ومقومات حضارته في النفوس . وباعتباره عضوا في الحلقة الدينية ثم رئيسا لها ،وباعتباره رئيس الحركة العلمية الرافعة راية لغة القرآن الكريم ،كان لابد أن تكثر بينه وبين الحكام العسكريين المواجهات والاستجوابات والمضايقات، وسجل في تقارير أولئك الحكام أن هذا الشاب مشاغب. ثم تطورت الأحداث ليصبح عندهم عدواً لدوداً بل أصبح أثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها وما بعدها العدو رقم واحد لفرنسا ،هكذا كان يسمى لديهم.

– نشاطه الجهادي :

شارك الشيخ **بيوض** مشاركة فعالة في الرة التحريرية الجزائرية ، بما قام به من خدمات جليلة سواء في إطار الحركة في الصحراء أم في اتصالاته المباشرة مع الحكومة المؤقتة في المنفى بواسطة تلامذته وإخوانه . أما المجال الذي برز فيه الشيخ **بيوض** سياسيا محنكا، ومفاوضا لبقا، ووطنيا ثابتا فهو موقفه الذي يشهد به الخاص والعام من القضية الصحراوية إذ حاولت فرنسا حين علمت أن الجزائر مستقلة لا محالة أن تمكر بالجزائريين **بفصل الصحراء عن الشمال لما في الصحراء من خيرات أهمها البترول و الغاز الطبيعي** ، وقد حاولت السلطات الفرنسية سواء على مستوى الجزائر أم على مستوى فرنسا أن تستميل الشيخ **بيوض** لعلمها بمنزلته العظيمة ولتيقنها بالدور العظيم الذي يقوم به الميزابيون في **الاقتصاد الجزائري** ، ولكن الشيخ **بيوض** الذي رفض هذه المحاولات، وأفشل هذه الخطط قبل الثورة ،ما كان له أن يتلجلج أو يتردد في قول كلمة:لا، قوية صارخة في وجه الاستعمار الفرنسي إيمانا منه بأن الصحراء أرض جزائرية، وجزأ لا يتجزأ منها. وكان الشيخ **بيوض** على صلة وثيقة بالحكومة المؤقتة الجزائرية في تونس ينسق معها الخطط ويطلعها على مؤامرات الفرنسيين أولا بأول ،ويتبادل مع بعض أعضاء الحكومة الرسائل والمعلومات.

وفاته:توفي الشيخ إبراهيم بيوض– رحمه الله – سنة 1401هـ / 1981 م ..

– آثاره الفكرية

إن الشيخ مثل غيره من رجال الدعوة و الإصلاح الذين كان أغلب وقتهم ينقضي في تكوين الرجال، والاعتناء بمشاكل المجتمع مما لا يبقى معه وقت كثير للانكباب على الكتابة والتأليف، ومع ذلك فقد كتب بعض المقالات الاجتماعية ذات الطابع التحليلي في العشرينيات والثلاثينيات نشرت في صحافة أبي اليقظان ،كما ترك فتاوى كثيرة ،ومراسلات ذات أهمية قصوى طبع بعضها ونشر وبعضها الآخر ما يزال مخطوطا . غير أن أهم ما ترك الشيخ **بيوض** هو تفسيره القيم لكتاب الله مستخدما المنهج الإصلاحي الذي عرفت به المدرسة الإصلاحية العبدوية فكان يعرض المجتمع على كتاب الله تربية وتوجيها، وقد استمر مواظبا حريصا على تلك الدروس لا يتخلف عنها إلا لمرض أو سفر . وكانت الآثار التي تركتها دروسه التي غطت قرابة خمسين سنة عميقة عظيمة، فبفضلها عمت الثقافة الإسلامية البيوت

وعرف المجتمع وجه الإسلام الحقيقي ،وبفضل دروس الشيخ التي تمتاز بالتحليل والتبسيط في آن واحد ،وتملك المستمع بما فيها من فصاحة، وعقل، وأدب وتراث، ومعاصرة . فمن آثاره الفكرية:

- تفسير كامل للقرآن الكريم، المسجل منه يبدأ من سورة الإسراء إلى سورة الناس ، يقع في حوالي 1500 ساعة، حررت في 12497 صفحة.
- مئات الأشرطة لدروس في الدين، و التربية، و الاجتماع، و السياسة، و الثقافة، و كان يلقيها في المسجد أو في المناسبات و الحفلات، و قد نشر بعض منها بعد تحريرها و تحقيقها، من ذلك.
- المجتمع المسجدي، من تحرير الدكتور محمد ناصر بوحجام، صدرت الطبعة الثانية عن دار أبي الشعتاء، عمان، 1409هـ/ 1988م (المقدمة)
- حديث الشيخ الإمام، في جزأين، من تحرير الشيخ محمد سعيد كعباش، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1996
- البدعة مفهومها و أنواعها و شروطها، تحرير الطالب إبراهيم أبو الأرواح، (مرقون) معهد الحياة، 1998م.
- "فضل الصحابة و الرضا عنهم"، تحرير الطالب بهون حميد أوجانة، مطبوع، المطبعة العربية، غرداية، 2000م.
- "فتاوى الإمام الشيخ بيوض"، يقع في جزأين، جمعه و حققه و قدم له الأستاذ الشيخ بالحاج بكير، طبع مرتين في كل من الجزائر و عمان، ينظر دار الضامري للنشر و التوزيع، سلطنة عمان، 1990م
- "ثبوت الهلال بين الرؤية البصرية و المراصد الفلكية"، حرره عمر اسماعيل، و قدم له د.محمد ناصر، صدر عن مكتبة معالي السيد محمد بن أحمد، سلطنة عمان، 1992م.
- مقالات كثيرة في موضوعات مختلفة نشرت بصحف الشيخ أبي اليقظان، ينظر د.محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، جزءان، نشر ش،و،ن،ت الجزائر، 1398هـ/ 1978
- مذكرات الشيخ بيوض (مخ)، صدر منها "أعمالي في الثورة" إعداد و تقديم د.محمد ناصر، نشر جمعية التراث، القرارة، 1990م

المحور الثالث: مؤسسات الدعوة الإسلامية في الجزائر:

المحاضرة: 17

1- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

توطئة: ترتبط جمعية العلماء المسلمين الجزائرين عضويا بما ذكر من جهود مؤسسيها، وخاصة نشاط الدعوة لموقظ الأمة وباعث نهضتها الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس- رحمه الله تعالى-.وقد أدراك الدعاة المصلحون أن الجهود الفردية لا تنفع كثيرا في تبليغ دعوة الحق وما

يقتضيه الأمر من جهود في الإصلاح الاجتماعي ، فلابد حتما من تظافر جهود العلماء والدعاة عبر مؤسسات للدعوة ؛ حتى يتسنى لها رد المكائد والمؤامرات الخطيرة التي تحاك ضد أصالة الشعب الجزائري مع ما يعانيه أصلا من أمراض إجتماعية فتاكة.....من هنا جاءت فكرة تاسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ففي عام 1931م أقامت فرنسا احتفالات ضخمة بمناسبة مرور قرن على احتلال الجزائر في سلوك استفزازي معلن، فكان ذلك صدمة أيقضت النفوس فهب العلماء لتاسيس الجمعية كجمعية دينية تربوية تعليمية بهدف: تربية الأمة عقديا ،اجتماعيا، جهاديا ن ولم يكن اعلماء ليعلنوا هدفها الحقيقي حتى لا تتعرض للمنع أو للحل ن وكانت جهود الجمعية أصل وأساس ثورة 1954م التي دفع خلالها الشعب الجزائري أزيد من مليون ونصف من الشهداء...وكان مشروعها سلفي في التركيز على إصلاح عقائد الناس وتخليصها من الشوائب ،مع الأخذ بأسباب القوة علما وعملا.(134)

منهج الجمعية في الدعوة و الإصلاح:

تُبين أدبيات الجمعية أنها جمعية إصلاح اجتماعي وثقافي وقد أخذت على نفسها الابتعاد عن الخوض في أتون السياسة، حتى يتاح لها مجال العمل التربوي ونشر الوعي الديني والوطني، يذكر (عمار الطالبي) أن منهج التغيير حوالي سنة 1922 أخذ اتجاهين متكاملين: الأول (معلن)العمل على توجيه الطاقات والجهود نحو التربية والتعليم، وتكوين نخبة من الدعاة مدربة على منهاج الدعوة مسلحة بالعلم والمعرفة... ، الثاني: يقوم على أساس الخطاب الشديد يزلزل سلطان البدع المتحكمة ويهدم العادات المتمكنة ويمثل هذا الخطاب: جريدة (المنتقد) وهي اسم على مسمى وكان شعارها : (الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء). وشعار"سعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية".(135) كنوع من المداراة للسلطة الفرنسية حتى لا توقف صدورها، ورغم ذلك لم يصدر منها العدد الثامن عشر حتى أوقفتها السلطة؛ لنها أدركت خطورتها على الوجود الاستدماري، فأصدر الشيخ عبد الحميد بن باديس (الشهاب) لتواصل نفس الرسالة وكان شعارها (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) وشعار (الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات) كما كتب على غلافها، وكتب في أعلى الصفحة أربع كلمات هي: (الحق، العدالة، الأخوة، السّلام) كما كتب أعلى الصفحة الآيتان: ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين**﴾ **– يونس/108–** وقوله تعالى:﴿ **أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ **–النحل/125–**

134)– عبد المجيد النجار،مشاريع الإشهاد الحضاري، ط1،بيروت: دار الغرب الاسلامي،1999م، ص93

(1 – عمار الطالبي ،م،س، ص 71...73

وجاء في أول مقال للشيخ عبد الحميد بن باديس عبارة تدل على قوة عزيمته في مواجهة ما يتوقعه من استبداد :" :"**تستطيع الظروف تكييفنا ولا تستطيع– بإذن الله– إتلافنا** "..... ولكن بعد خيبة الأمل في المؤتمر الإسلامي عام 1936 أصبح الشعار " لنعول على أنفسنا ولنتوكل على الله "..(136)

أخذت الجمعية على عاتقها المحاربة على جبهتين: جبهة الاحتلال الداخلي وجبهة الاحتلال الخارجي.

أولا)– الاحتلال الداخلي: ويتمثل في:

1- الطرق الصوفية **السلبية** أو ما يسمى بالطرقية ،لما تنشره من خرافات وسلبية وتواكل وقدرية مميتة تحشو بها عقول الناس وتخدرهم مما يدفعهم غلى اليأس والاستسلام لقدرهم المحتوم بحكم فرنسا مهما كان، وهو ما كانت السلطة–كما مر معنا– تشجعه.

2- جماعة النخبة أصحاب الفكر المستلب المنبهرين بالحياة الغربية المتشبعين بثقافة المحتل، المعجبين بأسلوب الحياة الأوربية الداعين للاندماج والفرنسة، فرنسة الفكر والعقول والألسنة.

3- الآفات الاجتماعية الخطيرة التي حرمها الدين كشرب الخمر والقمار والدعارة والتبذير، وقد انبرى رجال الجمعية في مقاومة هذا الاحتلال الداخلي الذي اعتبروه أخطر من الاحتلال الفرنسي نفسه (الخارجي).

وقد رسمت الجمعية الخطط لمكافحة هذا الاحتلال عبر الصحافة والخطابة وإنشاء المدارس أي وسائل التربية والتعليم والإرشاد، فشنّت حربا على الفكر الخرافي وما تروج له الطرقية من بدع وأساطيل وبيان زيفها وأهدافها الحقيقية في خدمة الاحتلال الفرنسي، كما وقفت بالمرصاد لدعاة الاندماج، فما كاد ينشر (فرحات عباس) مقاله الذي أنكر فيه الوجود التاريخي للأمة الجزائرية وإعلانه الانسلاخ من وطنيته حتى ردّ عليه الشيخ (ابن باديس) بما أفحمه مؤكدا أن الجزائر ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولو أرادت، بل وأصدرت الجمعية فتوى بتحريم التجنّس وبكفر دعاته (137).

كما عملت الجمعية على مقاومة حركة التنصير، بنشر الدعوة، وتنوير الجزائريين بزيف وعود المنصّرين وبتقوية عقيدة الشعب الجزائري مع التركيز على تعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره،(138)ولهذا يقول المؤرخ الفرنسي (شارل روبرت اجيرون C.R Ageron) إن تركيز العلماء على العربية والإصلاح كان لمواجهة الأيديولوجيات الغربية، وبالتالي إنهاء حالة الاغتراب السياسي والثقافي لمجتمعهم ....أما الآفات الاجتماعية فقد عملت الجمعية عن طريق التربية والتعليم ومحاربة الأمية والجهل على توعية الشباب لخطورة هذه الآفات اجتماعيا ودينيا. مع تنبيههم على خطورة ما ينتظرهم من مسؤوليات تحرير وطنهم....

(136 - نفسه، ص 85،86- 2

(137)1- نص الفتوى منشور بجريدة البصائر عدد 95 السنة الثالثة بتاريخ 12 ذو القعدة 1456هـ/14 جانفي1938 ،ص 2.عن تركي رابح : الشيخ بن باديس ،م،س ص72....74

(138)- تركي رابح، م،س،ص.269

ثانيا)–الاحتلال الخارجي: أعلنت الجمعية نفسها منظمة يستهدف الإصلاح الديني والثقافي عن طريق التربية والتعليم، لكنها أعطته دلالة سياسية من خلال تطوير الوعي الوطني والذاتية القومية. ولهذا فقد كان الشيخ ابن باديس كما يقول عنه (عمار الطالبي) :" يجمع بين النهضة الثقافية الاجتماعية والنهضة السياسية، بين التربية الإسلامية وبين الصحافة...

وقد تجسّد هذا التوجه من خلال المؤتمر الإسلامي بالجزائر عام 1936بل وصل الأمر إلى التصريح بعزمه إعلان الثورة لو توفرت له الإمكانات اللازمة، وقد كان يزمع تهيئة الأجواء والظروف بالتربية والتعليم حتى تمنح الفرصة لتحقيق الاستقلال وكان يقول: " وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه بدون سقف، وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال.!؟؟."(139).

من ذلك كله يمكن أن نعد – بلا مواربة– **ابن باديس الأب الروحي للثورة التحريرية**، (**لأنه لا ثورة دون فكر يؤسس للثورة**)، وأما ما تضمنه قانونها الأساسي في الفصل الثالث منه من إعلانها البعد عن السياسة فلم يكن إلا تكتيكًا فقط، لتضمن شيئًا من حرية العمل في تربية النشء وبناء الرجال(بالتربية والتعليم) وهم الذين يعملون لتحقيق الرجال، وهذا ما تنّبه إليه بعض الكتاب الفرنسيين وحذّروا منه(140).

أما الوسائل المعتمدة من طرف الجمعية لتحقيق الإصلاح والتغيير فقد ركّزت على إنشاء المدارس الحرة بالتبرعات الشعبية، استغلال المساجد لتعليم الكبار، ولعل أهم هذه المدارس (مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة) التي أنشأها ابن باديس أوائل العشرينات، كما لعبت الصحافة دورًا هامًا في نشر الوعي الديني والسياسي وقد أشرنا إلى صحيفة المنتقد ثم الشهاب والبصائر عام 1935، كما اعتمد على إنشاء النوادي والجمعيات والمراكز الثقافية في إلقاء محاضرات التوعية والتثقيف(141)ورغم نحوله الجسدي فقد كان بن باديس شيخًا نشطًا لا تفتر همته في السفر والاتصال المباشر بالجماهير وتحسّس مشاكلهم وتبليغهم مبادئ الإصلاح، حتى يقال أنه زار معظم المدن الجزائرية شرقا وغربا، إلى درجة أنه خلال سنة واحدة زار أكثر من خمسين مدينة(142).

فجهود الجمعية هي امتداد حضاري لجهود تيار الجامعة الإسلامية في المشرق بقيادة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، وما كان يصل الجزائر من منشورات وكتب ومجلات(خاصة العروة الوثقى)، أما عن أثر الجمعية فيتأكد لنا أنه لولا جهود رجال الجمعية وعلى رأسهم مرشد الأمة الشيخ ابن باديس لما حافظ الشعب على هويته الإسلامية العربية ؛ لما تعرض له من عمليات مسخ وفسخ عبر احتلال استيطاني بشع، فأرضية الثورة التحريرية كانت الجمعية قد هيأتها بزرع الوعي العميق بالذات والإدراك التام للواقع.

---

(139)3 – عمار الطالبي ، ابن باديس حياته وآثاره،م،س،ص88 ،89 .

(140)1 – أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ،ج2،م،س،ص420.

(141)2– ن م ، ص ، 422-423

(142)3–ن م ، ج3، م،س، ص 90

المشاركة في المؤتمر الإسلامي الجزائري 1936: في الثالث من يناير 1936 دعا الإمام عبد الحميد بن باديس على صفحات جريدة الدفاع التي كان يصدرها (الأمين العمودي) جميع الأحزاب الجزائرية والهيئات والمنظمات إلى مؤتمر إسلامي لتقديم مطالب الجزائريين إلى السلطة الفرنسية،... وقد لقيت دعوته ترحيبا واسعا لدى الهيئات والمنظّمات آنذاك.

انعقد المؤتمر بالملعب البلدي بالعاصمة يوم الأحد 7 يونيو من نفس العام اشترك فيه جماعة النواب من دعاة الاندماج، الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي وشخصيات وطنية مستقلة فيما عدا نجم شمال إفريقيا وقد كان هذا المؤتمر من الأهمية حيث وصف الشيخ الإبراهيمي يوم انعقاده بيوم الجزائر المشهود،

وقد اعتبر المؤتمر منعطف هام في منهج الجمعية في التغيير والإصلاح ، لأنها كانت تتفادى من قبل –كما سبق ذكره – الإشارة إلى كلمة (سياسة) في قاموسها اليومي. .(143) وهذا الموقف من الجمعية قد فتح عليها بابا من النقد الشديد، حيث اخذ عليها البعض تورطها في أسواق السَّياسة بما تحمله من ديماغوجية، والانحراف عن منهجها الأصيل في التربية والتعليم. أي رسالتها الثقافية، كما اخذ عليها تحالفها مع دعاة الاندماج.....(144)

وكان من أبرز رجال هذا المناخ الإصلاحي الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس،أو ((مرشد الامة)) –كما كان يسمى– الذي تعاهد مع ثلة من العلماء على تفعيل العمل الاصلاحي والتحرك الايجابي الفعّال لنشر الوعي والاصلاح الديني والثقافي ؛لأنهم أدركوا أن الشعب الجزائري مصاب إضافة الى الاستعمار الخارجي باستعمار أشد خطورة وأكثر فتكا بالجسم الجزائري العليل ،ألا وهو جراثيم الخرافية التي تمثل بحق الاستعمار الداخلي الفتاك وهو الذي يتقبل الاستعمار الخارجي بل ويستدعيه استدعاء.

والعمل في هذا المجال ،رغم صعوبة المهمة وما يتطلبه من طول نفس ومصابرة واصطبار ،من شأنه أن يهيء الارضية ويبني القاعدة الصلبة التي ستكون صواعق الثورة فيما بعد ....رغم إعلانها في قانونها الاساسي البُعد عن السياسة ،وحصر نشاطها في الجانب التربوي التعليمي ،إلا أن ذلك كان مجرد تكتيك من رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،لتضليل المستدمر الفرنسي(وهو من مقتضيات الحكمة في الدعوة) ؛إذ أن الهدف الاستراتيجي انما كان تحقيق استقلال الجزائر ؛ لأن بناء الرجال بالتربية والتعليم هو المرحلة الاولى التي ستهيء أرضية للوعي والاحياء الذاتي التي يستحيل أن يقبل بعدها الشعب الجزائري أن يكون مصيره بيد غيره....وقاعدة ذلك هي السنة القرآنية في التغيير وكانت شعار الجمعية (إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم](الرعد /11)،وهذا ما صرح به الشيخ ابن باديس ،نفسه،عام 1936م حين قال :<<وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه دون سقف ،وما غايتنا من عملنا الا تحقيق الاستقلال

---

(143) 4- ن م ،ص 161 162

(144) 1- ن م ،ص،163

>>.145....ولم يكن ذلك بخاف على مراصد الاستدمار ،فقد تنبه له بعض الكتاب الفرنسيين فأعلن أن سياسة الجمعية هي في بناء الرجال المؤهلين ،في مرحلة ما ،لإعلان الجهاد المسلح ضد الوجود الفرنسي"146.

وقد رمت الجمعية بكل ثقلها في سبيل نشر الوعي بالتربية والتعليم عن طريق الخطب والمواعظ والتعليم المدرسي والصحافة والمحاضرات والندوات ...والاحتكاك المباشر بالمجتمع، على رأسهم مرشد الامة الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان لا يقر له قرار ،دائم السفر والتجوال في أنحاء البلاد شرقا وغربا ،فكان نموذجا للداعية المصلح الملتحم بواقع الجماهير ومعاناتها 147 ،خلافا لجماعة الاندماجيين أو جماعة النخبة،الذين كانوا يتحدثون عن معاناة الشعب من بروجهم العاجية،وهو أمر طبيعي من جماعة تتنكر لتاريخ أمتها وتجحد ثقافتها.

ومن هنا يمكن القول أن ثورة التحرير الكبرى كانت نتاج الأرضية التي مهّدها علماء الاصلاح ،بما جسدته لقيم الجهاد ؛ لأن الفكر الثوري التحريري ،إنما كان ثمرة جهود هؤلاء بما يحمله من وعي عميق بالذات وادراك للواقع،،،،،فيظهر بذلك تهافت القول بأن الثورة تنحصر في تدبير جماعة من أصحاب الثقافة الفرنسية و التوجّه العلماني ،لأن هذه الثورة كانت ثورة الشعب المهيّأ سلفا من قبل جهود المصلحين ممن ذكرنا ،وكان هذا الاعداد النفسي والذهني هو الاساس الذي مكّن من تفجير الثورة ،ودفع بالشعب ،الى الالتحام بها ،والتضحية في سبيل وطنه بكل شيء ،والدافع الديني كان الاساس في ذلك وهو ما أدركه ذلك البطل المجاهد حين دعا لالقاء الثورة الى الشارع ليحتضنها الشعب ،،،وهو ماصدّقه الواقع حتى أصبحت زوجة الخائن تأخذ ذخيرة زوجها وترسل بها مع الرعاة الى المجاهدين!! .(148)...

ولا أدلّ على انضباط الثورة بتعاليم الشريعة من حرص قادتها على تعاليم الدين الحنيف ومعاقبة كل من اقترف محرما ،كالزنا وشرب الخمر .....إدراكا من قادتها أن أي انحراف عن الدين من شأنه رفع السند الالهي فتختل حينئذ موازين القوة لصالح الاستدمار الفرنسي لأنه الاقوى عدة وعددا ،ويروي المجاهدون في ذلك أحداثا كالاساطير تبرز عناية الله تعالى بالمجاهدين ونصره لهم ،،باعتبارهم مجاهدون في سبيله ملتزمون باحكامه ،يقول أحد قادة الجهاد : << لقد تعلمنا من قادتنا الاوائل بن بوالعيد،بن المهيدي، وبوقرة، وعميروش ، والحواس و لطفي و زيغود وغيرهم،وغيرهم أن حبّ الوطن من الايمان وأن حمايته والدفاع عنه شرط من شروط الحضوة برضى الله تعالى. >>149

.

ولذا يمكننا القول أن الجمعية بعلمائها ودعاتها قد قامت بدور عظيم وريادي في: نشر الوعي الديني والثقافي بين أفراد الشعب الجزائري ،الذي كان يعاني الامرين (إستعمار خارجي بشع، واستعمار داخلي ابشع)،كما قامت بدور سياسي لتنوير الرأي العام ودفع الشعب للثورة على أوضاعه البائسة،،،،وعلى هذا الأساس قمت ثورة التحرير المباركة .

---

145) – عمار الطالبي ،م،س،ص88،89

146)– أبو القاسم سعد الله،م،س،ص420

147)– نفسه،ج3،ص90..ويُذكر أنه زار خلال سنة واحدة أكثر من خمسين مدينة.!!

148)– الرائد لخضر بورقعة، شاهد على اغتيال الثورة، تحرير صالح بخوش ،ط2،الجزائر:شركة دار الامة،2000 ص222

149)– نفسه، ، نفس الصفحة.

المحاضرة: 18

- (2) دور الزوايا في الدعوة الاسلامية في الجزائر:زاوية الهامل نموذجا

تمهيد: من العوائق الموضوعية التي كثيرا ما تعتري البحوث والدراسات: وقوع أصحابها ضحية بعض الأحكام النمطية الخاطئة ، التي تتوارثها الأجيال دون أن تعرض على التمحيص والبحث التاريخي المنصف،،،،وهوما يوقع في مآزق الاحكام المسبقة المتأثرة بالذاتية المتنافية مع مقتضيات المنطقية الموضوعية اللازمة في البحوث العلمية.....

من الأمثلة الهامة الحكم النمطي على الزوايا الذي تلفه السلبية وسوء الظن ؛باعتبارها مؤسسات وجدت خصيصا لنشر الخرافية وبث القدرية والتعطيلية وزرع الجبرية والاستسلامية، وهو ما يعني تكريس السلبية فكرا وممارسة.... ما يستدعي –للإنصاف التاريخي–إعادة البحث الموضوعي بعيدا عن كل الاحكام الجزافية السابقة،،،رغم أن عدم تبرئة الكثير من الأخطاء التي وقعت وحاول البعض إصلاحها ، كما كتب الشيخ محمد السعيد بن زكري–وهو من أبناء الزوايا– كتابه:"أوضح الدلائل في إصلاح الزوايا ببلاد القبائل"، وهوما فعله الشيخ: محمد الطاهر الجنادي، والشيخ: البوجليلي، وغيرهم...(150)

يشير الدكتور البحّاثة (أبو القاسم سعد الله) إلى الدور الإيجابي العظيم الذي قامت به كثير من الزوايا في المحافظة على قيم شخصية المجتمع الجزائري (الدين واللغة)و في نشر الدعوة و بث روح الوعي الديني بين الرجال والنساء على حد سواء وبقيت الكثير منها– كما يقول– :" **المحضن الأساسي لفكرة الإصلاح والنهضة**" .(151.)..وتعرضت لاضطهاد السلطة الاستدمارية ،ويذكر منها زاوية الهامل (بوسعادة) أولاد جلال(بسكرة)، ،زاوية زواوة(بلاد القبائل)،وترجع للطريقة الرحمانية، وزاوية قصر البخاري،الطريقة الشاذلية ورغم الاضطهاد بقيت تقاور مكائد الاحتواء الاستدماري.(152)..كما توجد بعض الزوايا كان لها دور كبير في نشر الخرافات والفكر السلبي كالعيساوية والحنصالية(153)

150–راجع أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،بيروت : دار الغرب الاسلامي،ج7 ، عام 1998م،،،م، س، ص163 ،164.

151–نفسه،ج 3، ص ،33، 34 ،

152)–نفسه، ص ص: 32، 34

153)–أبو القاسم سعد الله، م،س، ج 3، ص171

انتشرت الزوايا بشكل واسع في الجزائر في ق17،،خاصة خلال القرن 19 ومطلع القرن 20 كرد فعل على ممارسات الاستدمار الفرنسي من جهة (في محاربته للدين واللغة)،ورغبة من العلماء الغيورين على إنماء الروح الدينية في النفوس وإيقاظها في العقول.(154)

– الدور الدعوي لزاوية الهامل:

– الزاوية في اللغة : ركن البيت، والمقصود بالزاوية : مكان خاص بالعبادة والذكر، وتربية المريدين على حياة الذكر والزهد، ،يتلون فيها القرآن ويتدارسونه بينهم ويتعلمون فيه علوم الشريعة ،تحت إشراف شيخ عالم عارف،يتدرج بهم على طرق المجاهدة للنفس والشيطان...

زاوية الهامل نسبة الى قرية الهامل وتقع بالجنوب الغربي من بوسعادة،تبعد بحوالي 300كلم جنوب العاصمة،وتعتبر منطقة اغلهامل البوابة الوسطى للصحراء الجزائرية الكبرى ، وموقع الزاوية هو على الطريق الكبير الرابط بين مدن الشمال قسنطينة والعاصمة وبلاد القبائل ،ومدن الجنوب باتجاه الجلفة والاغواط وغرداية نتقرت وورقلة...

وبنيت الزاوية على سفح جبل في الناحية الغربية من القرية ،تحوطها من الجنوب مجموعة من القمم الجبلية وهي تطل على القرية مما يحقق لها العزلة الضرورية للتأمل والعبادة،كما لا يبعد بها كثيرا عن القرية ليسهل قصدها لأصحاب الحاجات،،

كما أنها بنيت قرب واد قام مؤسسها الشيخ محمد بن أبي القاسم باستصلاح أراضيه واستغلالها في الزراعة ،،(155).

وقد كان مؤسسها الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم المولود عام 1823م/1239هـ،من علماء المنطقة ،ممن عرف بالتقوى والورع وحب الخير للناس جميعا والزهد في الدنيا والضلوع في علوم الشريعة،،،تربى بدوره في زاوية الشيخ علي الطيار(البيبان)ثم انتقل عام 1838م الى زاوية زواوة من آقبو حفظ فيها المتون وأتقن القراءات .وبقي في بلادج القبائل 8 سنوات،قام بدور كبير في نشر الوعي الديني بين سكان بلاد القبائل ينصح ويعظ ،،ثم أجازه شيخ الزاوية في الرجوع الى بلدته الهامل ليؤسس بها الزاوية المشهورة .(156)

– دوافع تأسيس الزاوية:بعد مكوثه 14 سنة بقرية الهامل مرشدا معلما بجامع التوتة، قررالشيخ محمد بن أبي القاسم عام 1862م إ نجاز الزاوية ،لعدة أسباب منها :

1–نزايد عدد الطلبة الذين الحوا عليه تخصيص مكان لتعليمهم ، وقد بلغوا 80 طالبا.

2 –وصية شيخه أبي داود بزاوية زواوة،

3 – وصية قدمها حسب بعض الروايات الأمير عبد القادر لمحمد بن أبي القاسم في لقاء جمعهما عام 1844م، رغبة من الأمير في بث الوعي الديني في نفوس الشباب للإعداد الجهادي،(راجع المحاضرة الثانية :الامير عبد القادر) وهو ما

154–)–يحي بوعزيز،"أوضاع المؤسسات الدينية خلال القرنين 19و20" ،الجزائر : مجلة الثقافة، ع 63، ماي1981م،ص25

155)– محمد بن الحاج محمد بن أبي القاسم، الزهر الباسم في ترجمة الامام محمد بن أبي القاسم، تونس:،المطبعة الرسمية ، 1304هـ،ص55

156)– نفسه،ص70

يؤكده محمد علي دبوز في كتابه نهضة الجزائر.ويقال أن السشيخ طلب من الامير السماح له بالالتحاق بالمقاومة والجهاد..

4 – تردي الوضع الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والخلقي والديني في منطقة الهامل، نتيجة لمخططات الافساد الاستدمارية.

– بناء الزاوية وأهم مرافقها:

نظرا لتوفر الإرادة والدافع الروحي ،فقد تم بناء معظم مرافق الزاوية الضرورية في مدة وجيزة، بدايت من 1862م وتم تدشينها في رمضان عام 1863م،ثم ايتكملت باقي المرافق لاحقا، وقد ساهم الاهالي في أشغال البناء،،وكان تمويل البناء من مال عائلة الشيبخ وتبرعات الأهالي ،،

مرافق الزاوية، تمثلت في :

- المسجد ،وكان واسعا تقدم فيه الدروس وتنشر في الدعوة والوعي الديني،،،
- بيت الضيافة:مخصص لعابري السبيل ومن يفد من الزوار سواء من المسلمين أو من الكفار(تأليفا لقلوبهم) ،،،
- بيوت الطلبة: غرب المسجد وهي غرف صغيرة لمبيت الطلبة،تسمى "عشة".
- منازل المريدين:خاصة بالفقراء و المساكين ومن لا مأوى لهم ،،،
- المطبخ(النوالة).
- المطعم: ساحة فسيحة لتناول الطعام.
- المكتبة، تقع مقابل المسجد .
- حي المقارنة: حي أقامه الشيخ لعائلة المقراني بعد ثورة 1871م.
- منزل العائلة: مقر إقامة الشيخ وعائلته.....

إضافة الى ذلك أنشأ الشيخ عدة بساتين ومزارع لتقوم بإطعام المريدين والضيوف ،،،

النظام الداخلي للزاوية يقوم على الشيخ وهو رئيس ومدير الزاوية له سلطة علمية وروحية،يستشار في الامور ،وهو المسير المفتي ..

الخليفة: نائب الشيخ.

المقدم:أو المقاديم،يكلف بنيابة الشيخ أو الخليفة، وتبليغ أوامر وتوجيهات الشيخ والاشراف على تنفيذها، ومراقبة التلاميذ في سلوكهم وأخلاقهم ،واتزامهم العلمي والشرعي،،،،(157)،

الوكيل: القائم بالشؤون الاقتصادية، أمين مال الزاوية.

الشاوش:يقوم بالاشراف على النظافة وتوجيه الزوار الوافدين.

---

157)- محمد بن الحاج، م،س، ص 47

– الدور الثقافي الدعوي لزاوية الهامل:

أولا)– النشاط العلمي والثقافي:للزاوية نوعان من التعليم: عام وخاص

– **التعليم العام**:وهو الموجه للناس كجزء من النشاط الدعوي العام ،ويتمثل في تلك الدروس والمواعظ التي يقدمها الشيخ وخليفته وبعض المبرزين من طلبته ،أومن الاساتذة الزائرين،كما تتمثل في دروس العقيدة و الفقه والتوجيه الخلقي، كما قد يدعى من الاساتذة من خارج الزاوية من يلقي من العلماء درسا أو خطبة في ساحة المسجد،وخاصة في المناسبات الدينية خاصة في احتفالات المولد،وليلة 27 رمضان،...وقد كان لمثل هذا التعليم دور هام جدا في المحافظة على سلامة عقيدة الناس وتمسكهم بقيمهم الدينية،،،والوقوف ضد مخططات الادارة الاستعمارية.

التعليم الخاص: أي النظامي الذي يقوم على االتزام من طلبة مسجلين يجتازون فيها مراحل مخصوصة،منظمة ،وله أوقات محددة،هو شبه مدرسي، يقوم على قسمين:– قسم لتحفيظ القرآن ،وهي مرحلة إجبارية،أساسها اللوح والقلم،والدواة،وفق الطريقة التقليدية، تحت إشراف شيخ معلم للقرآن....– قسم علوم الدين : ويقوم بتدريس مختلف علوم الدين واللغة العربية الى جانب علوم مكملة كالفلك،الحساب،التاريخ المنطق...

مراحل الدراسة:يمر الطالب بثلاث مستويات:

– المرحلة الإكمالية:يركز فيها على حفظ المتون، والشروح .

– المرحلة الثانوية:وتقوم على الشروح وشروح الحواشي،ويتوسع أكثر فأكثر في تلقين الطلبة كتب العلم وشروحها، ويرخص للمبرزين منهم تدريس المبتدئين،

– المرحلة العليا:تشمل كبار الطلبة، أو النظارون،الأعلى مستوى ، وأبالغ في الدرجة العلمية،ممن تحصلوا على إجازة الشيخ،ويشرف الشيخ على إعدادهم العلمي ليصبحوا شيوخا بدورهم،

– **منهج التدريس**: يقوم أساسا على التلقين والحفظ،يدرس فيه الطلبة علوم القرآن والحديث، تفسير القرآن،الفقه وأصوله،،اتقان علوم اللغة،البلاغة ،،،،،ويقوم \لك على مبدأ التدرج من السهل الى الصعب، من البسيط الى المركب، مع مراعاة مقدرة الطلبة ومدى استيعابهم،،،،،ففي المرحلة الاولى يدرس الطلبة في اللغة:الآجرومية في النحو، في المرحلة الثانية،يدرسون قطر الندى، وفي المرحلة العالية يدرون ألفية إبن مالك ،،،وكذا بقية العلوم الشرعية.

وأسلوب التدريس أسلوب تقليدي حيث يجلس المعلم ويتحلق حوله الطلبة لتلقي الدروس ...

– **شروط الالتحاق** بالدراسة في الزاوية: أهمها : كل مسلم يمكنه الالتحاق بالزاوية للدراسة،لكن الاستمرار يتعلق ب: 1– حسن السيرة والاخلاق، 2– حفظ القرآن الكريم.(158)...

وكان الاقبال على الدراسة بالزاوية كبيرا جدا ،حتى يورد سعد الله أن عددهم بلغ نحو ألف طالب،،،(159)

158)- محمد علي دبوز، م،س، ص69، أنظر أيضا: أبو القاسم سعد الله، م،س،ج3،ص330

159)- سعد الله، م،س، ص221

وقد كان للزاوية نظاما داخليا تضمنت بعض العقوبات للمخالفين أو الين يرتكبون بعصض المعاصي،لردعهم وردع غيرهم،،، نشير الى أن الزاوية قد خرجت كثير من العلماء الكباروالمفتين والدعاة والمصلحين ممن رفعوا راية الدعوة في بلاد الجزائر، ذكر بعضهم أبو القاسم سعد الله (160).

ثانيا)– النشاط الاجتماعي:إضافة لدورها التعليمي التربوي إضطلعت الزاوية بدور إجتماعي هام جدا،كجمعية خيرية كبرى،للبر والإحسان ،وذلك من خلال :

- قيامها بدور الحاض والملجأ الآمن للأيتام والفقراء والمساكين،وشكلت محطة لعابري السبيل .
- شكلت قبلة للمتخاصمين، لإصلاح ذات البين بينهم.حيث عدها الناس محكمة شرعية لا رد لحكمها في منازعاتهم.
- شكلت مركزا للمحافظة على تقاليد وعادات المجتمع للربط بين أفراد المجتمع في مواجهة سياسة المسخ الخلقي التي تقودها فرنسا .
- العمل على إحياء قيم التعاون، بما عرف في ذلك الوقت بالتويزة،لكل من أراد بناء منزل أو فلاحة أرضه وأعوزته الامكانات المادية،،،،
- العمل على جمع الصدقات والزكوات وتوزيعها على الفقراء والمساكين،،خاصة في شهر رمضان.
- العمل على تحصين الشباب بالزواج الجماعي مع تخفيف تكاليفه.

وقد كان لزاوية الهامل – من خلال ذلك – دور هام جدا في :

1- التخفيف من معاناه الشعب الجزائري.

2-قطع الطريق أما م الجمعيات التنصيرية للقساوسة المسيحيين.

3-إحياء روح الوحدة والتضامن الاجتماعي.

4-قطع دابر الفرقة والتخاصم والعداء بين الإخوة.،أفراد المجتمع الواحد.

4- مد المجتمع بالعلماء والمرشدين والدعاة ممن حملوا مشعل الدعوة والإصلاح في أنحاء الجزائر المختلفة شرقا وغربا....

160)-م،س،ص221

المراجع:

- أبو القاسم سعد الله،الحركة الوطنية الجزائرية،ج2،ط3،الجزائر:ش،و،ن،ت،1983

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3،وج 7 ، ط1،بيروت:دار الغرب الاسلامي ،1998م.

- تركي رابح،التعليم القومي والشخصية الجزائرية،ط2،الجزائر:ش ،و،ن،ت،1981م.
- تركي رابح،الشيخ عبد الحميد بن باديس،دط،الجزائر،ش،و،ن،ط.دون تاريخ.
- عبد الرحمن بن خلدون،تاريخ العلامة ابن خلدون،ج1،دط،بيروت:دار الكتاب اللبناني.
- عبد الرشيد زروقة،جهاد ابن باديس،ط1،بيروت:دار الشهاب1999
- عمار الطالبي،ابن باديس حياته وآثاره،ط2،ج1،بيروت:دار الغرب الاسلامي،م1983
- مالك بن نبي ،شروط النهضة،،ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين ،دط،دمشق:دار الفكر،1406ه/1986م
- مالك بن نبي ،دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين،بدمشق: دار الفكر
- مالك بن بني ، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل سقاوي،د،ط، دمشق: دار الفكر1406ه/1986م
- مالك بن نبي ، مذكرات شاهد للقرن مالك بن نبي ،م،س،ص الطفل الطالب ،ط2 ،الجزائر ودمشق :دار الفكر 1404ه/1984م.
- مصطفى الاشرف،الجزائر،الامة والمجتمع،دط،الجزائر:المؤسسة الوطنية للكتاب،دت.
- محمد تقي المدرسي،البعث الاسلامي، دط، البداية للنشروالتوزيع،1407ه/1987م .

- جمعية التراث، القرارة، معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2،

- يوسف الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، المطبعة العربية، غرداية، 1992م، ص 185-189

- في رحاب القرآن، الأجزاء: 1-10، تحرير: الشيخ بالحاج عيسى، نشر جمعية التراث، القرارة، (1992-2002م)

- فتاوى الإمام الشيخ بيوض، (جزءان)، مكتبة الضامري للنشر و التوزيع، سلطنة عمان، 1998م

- أعمالي في الثورة، إعداد و تقديم د.محمد ناصر، نشر جمعية التراث، القرارة، 1990م

- د.محمد ناصر بوحجام، الشيخ بيوض و العمل السياسي، المطبعة العربية، غرداية، 1412ه/ 1991م

- محمد ناصر بوحجام ،المجتمع المسجدي،. ، نشر مكتبة أبي الشعتاء، عمان، 1409ه/ 1988م

- محمد صالح ناصر، في رحاب القرآن، الإمام الشيخ بيوض، (المهرجان و التأبين)، نشر جمعية التراث، العطف، غرداية، 1989م

- حديث الشيخ الإمام، إعداد الشيخ محمد سعيد كعباش، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1996م.

- يحي بو عزيز ، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ، دار الغرب الإسلامي ، ج 2 بيروت ، 1995

- برونو إتيين، عبد القادر الجزائري،ط2،الجزائر:المؤسسة الجزائرية للاتصال والنشر والاشهار،2001

- الامير عبد القادر، بُغية الطالب على ترتيب التجلي بكليات المراتب،ط1، بيروت:دار الكتب العلمية، 1425هـ/ 2004م
- الفضيل الورتلاني،الجزائر الثائرة، ط3،الجزائر:دار الهدى،1992م

- أنور الجندي – الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة – 1385 هـ1965.

- زكي محمد مجاهد – الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية – دار الغرب – بيروت – 1994م.

- محمد كرد علي – المعاصرون – دار صادر – بيروت – 1413هـ= 1993م.

- خير الدين الزركلي – الأعلام – دار العلم للملايين . بيروت – 1986م.

- يوسف إليان سركيس – معجم المطبوعات العربية والمعربة – مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . بدون تاريخ.

- محمد السعيد الزاهري – محمد بن أبي شنب – مجلة المقتطف – نوفمبر 1929.

- مجلة" الثقافة " عدد 48 سنة 1978م، "الشعب 1978 عدد 4632.

- الموقع الإلكتروني :http://www.istiqama.netراجع

- الموقع الالكتروني: WWW.CHIHAB.COM